آخر ما قالته لي

آخر ما قالته لي

مجموعة قصصية

منى عبد الفتاح   ليلى ماماللي

الطبعة الأولى .... يوليو ٢٠١٣

الغلاف : كريم آدم

المراجعة اللغوية : محمد عبد الغفار

اخراج داخلي : إبداع للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٠٥٦٧

الترقيم الدولي : 978-977-6412-32-3

دار الحـلم للنشر والتوزيع

المقر الإداري : ١٧شارع مجلس الشعب - ميدان لاظوغلي - القاهرة

ادارة المخازن : ٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج

محمول : 01141824562

dar_el7elm@hotmail.com

منى عبد الفتاح ليلى مامللي

آخر ما قالته لي

قصص قصيرة

دار الحلم للنشر والتوزيع

الفهرس

١١ الأماكن

١٧ ياما قلبي في بعادك تاه

٢٧ آخر ما قالته لي

٣٩ يوم من عمري

٤٩ أكثر من قصة

٥٣ سارة

٥٧ حكايات

٦٣ روح هند

٦٩ حكاية من أربع زوايا

٧٩ ربما هو الحب

٨٥ سنة حلوة يا جميل

٩١ لا أحد سيعزي بالميت

٩٧ زوجة الأستاذ فلان

نحيا و نموت لأجلها ، و هي لأجلنا لا تموت ..

سوريّة في القلب أبد الدهر ..

القصة الرابعة عشرة

أجل، هي القصة رقم ١٤ بالترتيب الصحيح، فلا هو خطأ مطبعي، ولا (غلطة) ارتكبتها أنت حين أمسكت الكتاب مقلوبا، فجاءتك القصص بالعد التنازلي.

هي القصة رقم ١٤ بالفعل، لكنها بداية الكتاب، وبداية مشروعنا الروائي، نحن (منى وليلى)، والحقيقة أننا لم نحبذ أن نحذو حذو الآخرين، في أن نبقي كواليس عملنا المشترك حبيسة الأدراج، ولن نترك لك مجالا - عزيزي القارئ - لأن تتوقع أو تتخيل تلك الظروف التي جمعت كاتبتين في عمل واحد، حتى إن لم يلفت ذلك نظرك، أو أنك قد اعتبرته يقع في نطاق كل ما هو (عادي)..

ربما كان لطيفا أن نحيطك علما بأن ما بين يديك هو نتيجة علاقة (إنترنتية) استمرت لسنوات طويلة، ربما بدأت إن لم تخُنَّا الذاكرة في عام ٢٠٠٧، ستة أعوام بالتمام والكمال حتى لحظة كتابة هذه السطور، ستة أعوام من الأحزان والأفراح، من الانتكاسات والانتصارات، ستة أعوام انتقلنا فيها من طور الحياة الجامعية للحياة العملية، بكل ما في تلك المراحل من أزمات وتحولات، وكل من فيها من شخصيات، ستة أعوام انتقلت بعدها (ليلى) للحياة في القاهرة، مستودعة الله حلب الأبية، وسوريا العظيمة كلها..

منذ سنتين أو أكثر، اتفقنا على أن نبدأ هذا الكتاب، وها هو اليوم بين يديك، قد تقرؤه في أسبوع، وقد تفرغ منه في يوم واحد، وقد تمله بعد القصة الأولى، لكن وعلى الرغم من تلك الاحتمالات، تبقى متعة التجربة باقية فينا وتظل فرحتنا بتحول حلمنا إلى حقيقة هي الأروع..

(آخر ما قالته لي).. هو العنوان الذي يحمله الكتاب كما قرأته أنت، ولكن اهتمامك بأن تقرأ لنا يحتِّم علينا أن نطلعك على أن ما تقوله كل منا للأخرى ليس له آخر، بل وما سنقوله لك في ذلك العمل بلا آخر أيضا، فابحث فيه عن نفسك، ربما وجدتها بطلة في واحدة من قصصه، وإن لم تجدها، فاصنع لنفسك قصة جديدة بأبطال تود أنت أن تحيا معهم، واعلم أنه لا مستحيل

بعد تلك اللحظة التي تقرأ لنا فيها، اعلم أنك قد تجد صداقة عمرك بعد أن تصورت أنت أن العمر برمته قد ضاع، وأنك قد تعثر على الإنسان الصحيح في وقت زهدت فيه الناس أجمعين، واعلم أنك لملاقٍ من تحب ما دام الله قد قدر ذلك، حتى إن فرقت بينكم آلاف الأميال..

القاهرة

٣٠ - ٣ - ٢٠١٣

القصة الأولى
الأماكن

لم تكن تلك مجرد بداية لقصة قصيرة أحاول كتابتها وأنسجم معها بضع ساعات بحثا مني عن مشروع روائية في داخلي، بدأت بالتفكير في بدئها.. وأنا أمشي وحيدة في نفس شارع بدايات قصصي، لا أدري ما هو سبب وحي ذلك المكان لي، على الرغم من أنه لا يعنيني ولا لذكرياتي أي شيء لكنه ربما عنى لقلمي الكثير والكثير، عندما استحضر ذهني إحدى الأغنيات الغائبة تماما عنه وشدا مطربها «الأماكن كلها مشتاقة لك».. حتى أكون أكثر صدقا مع نفسي وقلمي ومعكم سأقول: إنني استحضرتها بصوت المطربة العملاقة «أصالة»، وهي من أكثر الأصوات المحببة إلى قلبي.. لم أكن يوما من عشاق الفن الخليجي، لكن الأغنية أوقفتني للحظات عند معاني كلماتها، ولسوء الحظ - حظي طبعا - لم أكن أحفظ منها سوى بضع كلمات قلة «الأماكن كلها مشتاقة لك والعيون اللي.. ترا ريرار رارا».

ما جعلني لم أُطِل التعمق بالتفكير على الأخص عندما قطع سلسلة أفكاري شعور بالتعب بعد يوم مجهد في الكلية الذي استدعى توقفي عن كل شيء حتى الحركة بانتظار السيارة «الأبيض والأسود» الغائبة عن الشوارع كلما احتجتها، والتي تدعى «تاكسي».. خُذِل سوء ظني ككثير من المرات ولم يطُل انتظاري، فسرعان ما وجدتها.. ارتميت على المقعد الخلفي طالبة الاسترخاء شبه الكامل وبعد دقائق استعدت نشاطي ووعيي التام لأركز على «الراديو» الذي يملأ صوته المكان.

إهداء من حسام إلى هبة..

من سارة ولينة وسلمى إلى الصديقة العزيزة ندى..

من مدحت وهند إلى ابنهما الغالي محمد..

وأغنية «الأماكن»..

«الأماكن كلها مشتاقة لك»..

لم يتجاوز رد فعلي في تلك اللحظة جملة مثل «يااااااااااااه ع الصدفة»، على اعتبارها صدفة جميلة مكررة عشرات المرات مع مطربين أحبهم،

كنت أعتقد أن حبي والشحنات الموجبة المنتشرة في النيتروجين المشحون بالكهرباء المفرغ من الهواء، وما إلى ذلك من الكلام الفيزيائي غير المفهوم، هي السبب في ذلك التوارد.

أصغيت إلى الأغنية لعشرات الثواني، ومن ثَمَّ شرد تفكيري إلى أحداث اليوم والبارحة والغد، وتلك الأمور اليومية الروتينية كذلك اليوم.

في اليوم التالي تسلل الكسل إلى نفسي، فتناسيت وعدي لها بالتمارين والرياضة واللياقة، فكان بين باب الكلية وباب سيارة الأجرة ما لا يزيد على ثلاث خطوات، عندما أغلقت الباب بعد صعودي، تعالت في المكان أصوات الآلات الموسيقية والدفوف، وبعدها صدح صوت المطرب في الأرجاء:

«الأماكن كلها مشتاقة لك.. مشتاقة لك».

لا أخفي أن ذهولي تعدى مرحلة الصدمة لحظتها، لم أومن يوما بما يدعى «صدفة» فكانت كل الحوادث نتيجة لسبب مسبَّب من مُسبِّب، أخذت أبحث بين كلماتها ونغماتها عن الرسالة القدرية التي ظننت أنها قد تكون موجَّهة لي في تلك الأيام «كل شي حولي يذكرني بشي.. حتى صوتي وضحكتي لك فيها شي.. لو تغيب الدنيا عمرك ما تغيب شوف حالي آه منتظر إيه علي...».

هل يعني ذلك أن الفراق آت لا محالة؟ فراق من؟ وكيف؟ ومتى؟ هل هي أمي؟ لاااا يا ربي، إلا أمي.. لاح لي وجهها الحنون وضحكتها وصوتها.. أبي؟ حقا لا أقوى على فراقه، آه يا أيها الأمان الضائع بفراقه.. إخوتي؟ توالت في مخيلتي صورة كل واحد منهم ومواقف عشوائية مختلطة، أم هي صديقتي؟ ربّاااااه.. ما من صديق ولا صداقة لي بعدها.. أجل أجل أجل هي أنا، أنا من سيفارق، وإلا لما وصلت لي الرسالة بالذات.. نعم هو المنطق نعم هو الـ...

كانت الأسئلة تدور في خلدي بسرعة: من اكتشف فجأة أن قنبلة موقوتة توجد داخل سيارته في طريق مزدحم والعد التنازلي قد تجاوز الـ٦٠ ثانية؟ لم ينتشلني من ذلك الرعب سوى صوت سائق الـ«تاكسي» وهو يطلب مني

أن أدله على الشارع الذي أريد الوصول إليه.. وكنا أصلا قد اقتربنا، صعدت إلى البيت.. وجدت أمي.. رمقتها بنظرات حنون كمودّع مفارق، استغربت هي لها لكنها لم تطل الاكتراث فدعتني إلى تناول الغداء.

بعد أيام.. أتابع مع أختي مسلسل «أهل الغرام» السوري، وبعد شارة ممتعة، يأتي اسم الحلقة وموسيقى تصويرية ممزوجة مع أغنية الحلقة.. الأماكن كلها... لم أذهل كما سبق، فقد كنت على يقين من أنها ستطاردني أكثر وأكثر، لكن شيئا داخلي صرخ: «يا الله.. كفاية بقى»، لكن ملامحي الخارجية لم تكن توحي بشيء؛ فقد اعتمدت سياسة إظهار عدم الاكتراث مع تلك الأغنية حاولت طردها من أفكاري.. من دندنات عقلي الباطن..

مرت أيام وشهور.. وربما تجاوزت السنة... أسمع عاليا «الأماكن كلها مشتاقة لك».. تقول لي صديقتي: «موبايلك بيرن» فأجيبه على الفور، وها هو أبي يطلب مني ألا أنسى ما اتفقت عليه مع إخوتي على إحضاره لإتمام تجهيزات عيد ميلاد أمي.

القصة الثانية

ياما قلبي في بعدك تاه

- مممم.. أنا بس كنت حابة أسألك: يعني بتتعلمه فين؟ أو فين أقدر آخد كورسات؟

سألته وفي عينيَّ نظرة لن أترك لك مساحة لتأويلها كيفما شئت، نعم كانت نظرة بنظرة العشاق أشبه، بل دعني أعترف لك أيضا أن الموضوع كله كان «تلكيكة»، فلا أنا فكرت يوما في اقتناء جيتار، ولا كانت الموسيقى من هواياتي، اللهم إلا من لهفتي على ألبوم عمرو دياب الجديد مرة كل سنتين، أضف إلى ذلك كله أن الجيتار - ولسبب لا يعلمه إلا الله - يذكرني بذلك الشخص الذي لا أذكر أنني كرهت أحدا قدر ما كرهته، إنه الملحن الموهوب، والموهوم في آن واحد، عمرو مصطفى، ذلك المجنون الذي زادته ثورة مصر جنونا، فأصبحت لا أطيقه، ولا أطيق كل ما هو من «ريحته»، بما في ذلك آلة الجيتار، إلا أنني - وسبحان مغير الأحوال - انقلبت على وجهي هائمة بها منذ ذلك اليوم الذي رأيته يحمل جيتارا، ذاهبا إلى حيث لا أدري.

- كلميني في أي وقت على النمرة دي.

ألم أقل لك إنه سبحان مغير الأحوال؟ انقلبت نظرة العشاق في ثوانٍ إلى نوع آخر من النظرات لا أعرف له اسما، لعلها من ذلك النوع الذي ترمق به شخصا أمامك قاصدا أن تقول له: «انت مش محترم على فكرة»، وفيمَ الاستغراب؟ هل لأنك تصورت من سطوري السابقة أنني أحبه؟ نعم، ولكم وضعت آلاف السيناريوهات الخيالية التي تؤدي كل طرقها إلى حديثنا هاتفيا، إلا أنني رفضت رفضا قاطعا أن أتصور، أو أن يتصور هو، أنني ممَّن يتعرفن بالطرقات الجانبية، و«هاتي رقمك، ولا تحبي تاخدي نمرتي وتكلميني انتي؟»، يا إلهي، كيف تصورني ذلك المراهق؟ بادلته النظرات عمرا، فيحدثني كأطفال استرقا نزهة في موعد من مواعيد الدروس الخصوصية، لا أعرف كم استغرقت من الزمن وأنا «متنَّحة» في تلك الورقة، وما أن رفعت عينيَّ عنها لأسأله عن ماهيتها، إلا ورأيته كان قد ابتعد عني مكملا طريقه، لكنني لم يكن بوسعي أبدا أن أترك ذلك الأمر ليمر مرور

الكرام، فناديت:
- لو سمحت..
- أنا بدي كورسات جيتار في ساقية الصاوي، مبسوط إننا اتكلمنا.
الله على حبك انت، ما اعرفش ليه قدامه بتلف الدنيا بيَّ، آاااااه، سبحان الله، منذ متى عرفته؟ عامان تقريبا، أذكر أنني كنت كلما رأيته، أغيِّر الـ«ستاتس» على موقع الفيس بوك لـ«بتلف الدنيا بيَّ».. إذًا هما قياسا على الوقت الذي أصدرت فيه تلك الأغنية عامان تقريبا، بلا كلمة ولا ابتسامة، هي فقط نظرات، أغلبها إن كنت صريحة بلا معنى معين، إلا أنه في آخر مرة كنت واثقة من أننا سنتحدث بعدها، صحيح بدأت أنا الحديث، لكن في صورة لا أظنها مهينة، ألم يقولوا إنه لا حياء في العلم؟ إذن فلا حياء في الجيتار..
- ألو، مساء النور، أحمد حامد؟
- مساء الخير، ازيك يا منى؟
«نعم»!! كدت أقولها، لولا أنني وضعت يدي على شفتيَّ في الوقت المناسب، ونظرت بسرعة إلى شاشة هاتفي فتأكدت أنني لم أطلب أحدا من أصدقائي، وأنني أحدثه هو، لكن «ازيك يا منى»؟ كيف؟ أيعلم اسمي؟ أيعلم رقم هاتفي؟ صدق الله العظيم حينما ذكرنا كإناث مشيرا إلى كيدنا العظيم، لكن يبدو أن للرجال مكرا من نوع خاص أيضا، لكن من أين له هذا؟ أبعدما تحدثنا، أم كان الأمر قبل ذلك؟ وإن كان فلماذا تأخر، إلا أنني لاحظت هنا أنني أنا التي تأخرت عن ردي عليه، فاستكملت دون الإشارة إلى الطريقة التي عرف بها الاسم:
- الحمد لله، يا رب تكون انت بخير.
- الحمد لله تمام.
- أنا كنت بكلمك علشان كورس الجيتار، أقصد يعني كنت حابة أعرف منك المواعيد.

- آه، في العادي الكورس بيكون اتنين وخميس، بس الفترة دي موقَّف الكورس علشان عندي حفلة آخر الأسبوع ومشغول في البروفات شوية.
- ربنا معاك، خلاص، أنا هكلمك الأسبوع الجاي إن شاء الله، مع السلامة.
- سلا... منى.
- أيوه يا أحمد.
- أنا عاوز أشوفك في الحفلة دي، يا ريت تحاولي.
- إن شاء الله، هحاول، مع السلامة.

بالطبع كنت أول الحاضرين في حفلته، كانت أغلب المقاعد شاغرة، إلا أنني اخترت مقعدا في الصفوف الأخيرة؛ حيث لا يراني أحد، الحق أنني تحمست جدا وانتظرت الموعد على أحر من الجمر، بل وارتديت أفضل ما عندي، لكنني لم أعرف لماذا شعرت بكل هذا القدر من الخجل حينما وصلت إلى هنا، لكن الخجل سرعان ما ذهب عني حينما اعتلى المسرح، رباه، ما تصورت يوما أن الجيتار بهذه الروعة، ولا تصورت أن أحمد، بتلك الصورة، كان يحرك جسمه كله مع أنغام الجيتار، حتى إنني تصورت أنه طرف طبيعي بجسده، يضحك، يبتسم للجميع، ويومئ لأصدقائه بإشارات يفهمها ويفهمونها، إنه رائع..

عندما انتهى الحفل، وقبل أن أصل إلى باب الخروج، استوقفني أحد العاملين، أعطاني شيئا، أخبرني أنه من الأستاذ أحمد حامد، كان شيئا يشبه بطاقة الدعوة، كان على شكل جيتار، وتدلى منه «كارد» آخر على شكل مختلف، لكن عليه رقم ٢، فعرفت أن المقصود أن أقرأ رسالة الجيتار أولا، ففتحتها فوجدت فيها بخط عربي منمق:

«شكرا إنك جيتي..

كان نفسي نتعشَّى سوا، بس حصل ظرف طارئ، أنا آسف».

أما الرسالة الثانية فببساطه كانت:

«أنا بحبك، أوي..

على فكره، الكارت ده على شكل البيك، ريشة الجيتار..
اعتبري إن ده أول درس في الكورس بتاعنا».

اختلطت المشاعر ما بين المفاجأة والفرح والخوف، ما كنت أعرف أن النفس البشرية قادرة على أن تحمل كل ذلك القدر من المتناقضات: «بحبك»، أقالها حقا؟ ألم يمر سوى أسبوع على حديثنا الأول؟ نعم، لكن ألم يمر عامان وأنا أعرفه وهو يعرفني؟ ألم أحلم به مرارا وتكرارا؟ ألم أحلم بقصة حب تخرق كل الأعراف والتقاليد، وتكسر الإطارات التقليدية لحكايات الحب؟ لكن، هل أغامر؟ هل تكفي بعض النظرات لتكون أساسا لمستقبل أحلم به؟ لا أعلم، لكنني ما كنت قد وصلت للبيت إلا وأخرجت هاتفي وأرسلت له رسالة نصية، أرسلتها بلا تردد:

«أنا كمان يا أحمد، بحبك».

هل تدَّخر لنا الدنيا السعادة؟ هل يمكن أن نفرح ونحب ونعشق في أيام، كما لم نعرف لتلك المشاعر طعما خلال سنوات؟ أحمد، هو أحلى ما في الدنيا، كم يحلو لي أن أغمض عيني وأتذكر أحاديثنا، فأرددها على نفسي كالبلهاء، وكأنها الهواء، أحتاجها لاحيا..

- بتحبي الجيتار يا منى؟
- أوي..
- ليه؟
- علشان بحبك..
- ممم..
- انت بقى، بتحبني؟
- لأ.
- والله! ليه؟
- علشان بحب الجيتار.
- انت رخم.

- وانتي هبلة.
- أحمد!
- بس يا هبلة.

* * *

- عمرو مصطفى! انت، انت بتحب عمرو مصطفى؟!
- آه، إيه مالك؟
- بكرهه، يا ساتر يا رب، خنيق!
- بس يا بت.
- بتقولي بس يا بت علشان خاطر واحد مجنون، قال عمرو مصطفى.
- على فكرة المجنون اللي بتتكلمي عليه ده واحد من أحلامي.
- يا سلام!
- آه والله.
- إزاي بقى؟
- نفسي أوي أشتغل معاه.
- جيتاريست؟
- لأ، شاعر.
- أحمد! انت بتكتب أغاني؟
- آه، بكتب.
- بتكتب؟ ما حدش قالك إن اللي بيكتبوا بيروحوا النار؟ هههههههه.
- يمهل ولا يهمل.

* * *

- أحمد، كل الهدية دي علشاني أنا؟
- مفيش حاجه تغلى عليكي يا حبيبتي، كل سنه وانتي طيبة.
- طيب أنا نفسي أفتحها دلوقتي.
- ما انا ممكن أقولك فيها إيه.
- إيه يا حبيبي؟
- جيتار.
- جيتار؟
- آه، أصل ما حدش بيروح يسأل عن مواعيد كورس جيتار وهو ما عندوش أصلا، فاهماني طبعا.
- أنا بحبك..
- وأنا بحب عمرو مصطفى.
- بكرهك يا أحمد.
- بحبك أوي..

* * *

مات أحمد، هذا ما حدث، بلا دراما ولا حوادث أذكرها، ألم يقولوا إن موت الفجأة من علامات الساعة؟ وها هو حبيبي يموت فجأة، أخبرني صديقه أنه كان جالسا معهم يشاهد إحدى المباريات، كان هادئا كعادته، لكنهم وجدوه ميتا بعد انتهاء المباراة.. هذا ما حدث..

مات أحمد لكنه لم يمُت بداخلي، لم أبكِ، كلما اغرورقت عيناي أتذكره وهو يخبرني بأن «شكلك وانتي زعلانة بشع»، أتذكر كيف كان يقولها ويغمض عينيه بشدة ويخرج لسانه فيبدو كرتونيا، فأضحك من بعد ضيقي حتى أكاد أقع، أحاديثنا كلها أذكرها، تعلمت على جيتاره، الجيتار الذي أهداني إياه، تعلمت ذاتيا، شغلنا هوانا فلم نبدأ ما كنا قد تعرفنا من أجله أصلا،

ولم أستطع أن أتعلم فنه على يد غيره، ما زالت رائحته على «الكارد» الذي أهداني إياه يوم الحفلة، ما زالت في ملابسي، وأصبحت عيناي من أجل عينيه لا تعرف طريقا للنوم، إلا على أغنيات عمرو مصطفى..

لا..

أنا صعب اللي بينا أنساه..

ولا بعدك دي تبقى حياة..

ياما قلبي في بعدك تاه..

حبيبي ليالي..

القصة الثالثة

آخر ما قالته لي

(تعرفي لو الراجل بيقلّع مراته الدبلة بنفسه ساعة الطلاق ، كانت نص حالات الطلاق ، لاء نصها إيه ، كانت أغلب حالات الطلاق محصلتش ..)

قالتها بعدما سحبت أنا من إصبعها خاتما إشترته مؤخرا لاراه ، كانت تنفث دخان سيجارتها إلى أعلى ، تعلمت التدخين و أشياء أخرى كثيره بعد طلاقها ، و تعلمت أنا أن أستمع إليها دون أن أرد ، فهي لم تعد تحتمل أي شيء ، أصبحت نفسيتها أكثر هشاشة و كنت أظن الزواج قد جعلها أقوى ، و لكن ما حدث أنه أفقدها حتى القدرة على التوازن ..

كان كل شيء تقليديا في حياتها ، لا عمل و لا زملاء و لا فيس بوك ، و لا اذكر لها هواية معينه ، الغريب أنها لم تكن تمل أبدا ، كنا نأتي لها بحكايتنا ، بأوجاعنا ، تستمع فلا تمل ، و نغيب عنها فلا تمل أيضا ، على أنها كانت دائما ما تنتظر ، تنتظر شيئا لا نعلم ماهيته ، و لا تعلم هي متى يأتي ، حتى ذلك اليوم الذي جاء فيه « مصطفى) ..

(إنتي عارفة ، كل الناس بتشوف الجواز حاجة كبيرة أوي ، بس اللي مش كل الناس عارفاه ، إن الحاجة الكبيرة دي ، قايمة أصلا على عدد لا نهائي من الحاجات الصغيرة أوي أوي ، ممكن متحسيش لما تروح منك اول كام حاجة صغيرة ، هبسطهالك ، عارفة المثل بتاع (نواية تسند الزير) كل الناس عارفة ده ، بس محدش بيفكر ايه اللي ممكن يحصل لو النواية دي مسندتش الزير)

يبدو أن تجربتها كانت قاسية جدا ، لم تبد أنها ستكون كذلك في البداية ، ربما جعلها ذلك أقسى ، فهي قد أحبته جدا ، جدا جدا ، على الرغم أن قدومه على حياتها كان ككل شيء حولها آنذاك ، تقليديا هو الأخر ، تعرف

أنت تلك الجلسات العائلية المملة ، التي تنتهي بقراءة الفاتحة ، و لكنها قد مثلت لها الكثير ، فهي قد إندفعت في حبه بسرعة تقارب سرعة الضوء، حتى كان زواجهما ، كانت سعيدة جدا يوم زفافها ، و بدا هو كذلك أيضا ، كان الجميع سعيدا ..

إذن كيف وصلت الأمور إلى هنا ،
هذا هو السؤال ..
كل ماعلمناه جميعنا ، أنها سافرت معه إلى ايطاليا ، بلد الحب و الرفاهية .. عندما كانت تهاتفنا ، كانت تبدو في غاية السعادة ، احتفلا بدلاً من شهر العسل ، بثلاثة شهور ، بل كانت حياتهما كلها شهر عسل متواصل ، أمضت سنة و نصف على هذا الحال إلى أن انقطعت أخبارها عن الجميع ستة شهور ثم عادت لنا ، أو عاد طيفها لنا ، أما روحها فقد بقيت هناك أو أنها قد أضاعتها على الطريق !، أو ربما قد سقطت سهوا منها في مكان ما ! نظرات والدتها الحزينة لم تفلح في اعادة تلك الروح التائهة و لا إلحاح أخاها الوحيد ، كنت أنا الوحيدة التي نجحت في جذبها إليها لتخرج من عزلتها ، و الحقيقة أنني كثيرا ما مررت بلحظات نفاذ الصبر ، و أقسم أنه لم يكن للفضول دخل في ذلك ، و لكنني كنت أتألم لها ، أتألم و أكاد أصرخ من الألم و أنا أرى نفس نظرتها الباردة خلال نصف عام أو أكثر ، حتى كانت تلك الليلة

كنا نجلس في إحدى مقاهي القاهرة الفاخرة ، بنور خافت و أكل شهي ، نظرت إليها ! رباه .. كيف تأكل مع أحزانها ؟ و تشاركه لذة الطعم ! .. نظرت إلي و ابتسمت ابتسامة باهتة عندما رأتني أنظر إليها

(عارفة المكان ده ، في زيه بالظبط في روما ، أول ما نزلت من المطار مصطفى أخدني عليه اتعشينا فيه)

ذهلت ! فهل عنى ذلك أنها ستبدأ بالكلام ؟ أم أنها جملة قد هربت من ذلك السجن المظلم الموصود داخلها ! ، كانت هذه أسوأ اللحظات التي مرت خلال الشهور الماضية ، كم كنت انتظرها و كم شعرت بثقلها الآن .. هل أعتبر نفسي لم أسمع شيئا ؟ فأكبح محاولتها اليتيمة في التفريج عن النفس ؟ أم هو مطلبها و ما كانت جملتها تلك إلا غلطة تعاتب نفسها عليها الآن ! و هل ستتحول نظرتها البريئة إلى نظرات شرسة عندما سأحاول اقتحام مابداخلها !

(ابتدي منين ؟ أول شهر بعد الجواز؟ و لا ابتدي من الخطوبة؟ بصي خليني احكيلك على اللقاء الأول ، اول مرة شوفتيه فيها .. كانت جنب بيتنا ، أول مرة شوفته فيها ، لاء مكانش نفس اليوم اللي جه فيه مع أهله يخطبني ، أنا شايفاه قبل كده للاسف
أكيد هتقوليلي صدفة هايلة و معرفش ايه ، هي كانت هتكون كده فعلا بس لو انا شايفاه كده عادي .. لو شايفاه لوحده !..
انا شوفته ساعتها جنب بيتنا .. كان مع واحد وواحدة كانوا بيمشوا ويضحكوا .. لفت نظري أوي بس هو ماشافنيش .. تقدري تقولي طريقة كلامه و لبسه و حركاته و كل حاجة فيه شدوني أوي ، قعدت أقول يابختها بيه .. ان كان حبيبها أو صديقها ، لأني وقتها ماعرفتش أحدد التلاتة ماشيين بنفس الحب لبعضهم تحسيها حكاية حب ثلاثية ! فضلت أبصلهم لحد ما عدوا من قدامي و غابوا عن نظري ، كان يجي في بالي بعدها و ابتسم و افرح ، لما جه مع اهله يخطبوني ماكنتش مصدقة ده ولا أحلى حلم في الدنيا، أروع فيلم في الدنيا مايطلعش فيه كده ، لما اتعرفت عليه حبيته

أكتر ، لأ كلمة حبيته دي قليلة أوي على اللي حسيته نسيت كل حاجة و كل الناس و الاحداث اللي حصلت قبله ..
اتجوزنا ، اجمل شيء في عمري هو .. أنا لحد اللحظة دي ماشوفتش حد بيعامل شخص في حياته زي ماعاملني ، قدملي أكتر مانا عايزة ، كنت استغرب معقولة في حد يقدر يدي كل ده ! و ايه اللي شايفه مني عشان حاسبني بستاهل !
و احنا في ايطاليا ، على فكرة ايطاليا أجمل بلد في الدنيا .. الناس ازاي مش شايفة منها الا البيتزا ؟ مش لايق عليا أهرج صح بالمنظر ده ؟ ياستي لايق ولا مش لايق ، هو أصلا مين اللي بيحدده ؟ مالك بتبصيلي كده ليه ؟ بجد ده سؤال كبير أوي .. مش انتي صحفية؟ اسألي السؤال ده لقراءك .. مين اللي بيحدد اللايق و اللي مش لايق؟ وبعدين يعني لايق ولا لأ ده هيفرق ؟ دلوقتي لما تشوفيني لايقة عليا حاجة هيحصل ايه؟ هستفاد ايه؟ هتحبيني ؟ طب ياستي ايه رأيك اني من كتر ما مصطفى حبني انا ابتديت اشك فيه؟»
الشك ! ، الشك هو زر في ريموت كنترول حياتك الزوجية ، ضغطك عليه كفيل بأن ينهي الإرسال في لحظات ، ربما إتضحت الصورة الآن ، شك ، فخيانة ، فطلاق ، و لكن مهلا ، ثمة تفصيلة تنقص هنا ، عادة ما تشك المرأة في زوجها ، في تلك اللحظة التي تجد فيها دليلا ، ماديا كان أو معنويا على وجود أخرى في حياته ، أما أن تشك هي فيه ، لمجرد أنه يحبها جدا ! ، كاد السؤال أن يهرب من بين شفتي إلى أذنيها ، و لكنني لن أفعل ، لكن يبدو أنها إنتبهت لتعبيرات وجهي ، فأجابتني بنصف إبتسامة ..

(بتقولي ايه لنفسك عني دلوقتي ، بتقولي إنه مرض و تخلف ! اه والله بقيت اشك فيه ، في مرة جه وقالي صحابي كانوا من ايام الجامعة ، دلوقتي هم في ايطاليا و عايزين نعزمهم على الغدا .. انبسطت انه هيبقى عندنا ناس اكتر .. هبقى اعرف اصحابه اللي مالحقتش اعرفهم في مصر قبل السفر

، بيني وبينك كنت ساعات برده بقول يمكن الشك ده ، أو أي مشاعر سلبية عموما ، من قعدتي فاضية ، وأهه ، ظهر له أصحاب ، بالوقت هيبقوا أصحابي أنا كمان ، فرحت ، فرحت أوي ..
تخيلي بقى كانوا مين صحابه ، إفتكرتهم أول ما دخلوا بيتنا ، هم الولد و البنت اللي شوفته ماشي معاهم قبل ما يخطبني ، هنا الشك إتحول ليقين ، يقين إن في لعبة اتلعبت عليا ، و إني كنت طرف في حكاية رخصية أوي ، ضحكهم مع بعض كان بيقتلني ، طريقتهم في الكلام ، صدقيني الحكاية مكانتش مجرد صحوبية ، في حاجة غلط .. نظرتها ليه و نظرته ليها ماكانتش طبيعية ، قدمهملي «أمجد صاحبي و منّة ... مراته و صديقتنا من أيام الجامعة» ساعتها كانت نظرة جوزها و نظرتها و نظرة مصطفى نفسه غريبة أوي ! مافهمتهاش إلا قريب ...)
(ينفع منتكلمش في تفاصيل ؟ ، ينفع منكملش كلام أصلا ؟)
أنا لم أكن أطمع في أكثر من ذلك ، نهاية تقليدية لزواج تقليدي و إن كانت هي قد عاشت في خيالها حكاية بدأت بمصادفة رؤيته ، و هو أمر تقليدي أيضا ، لم يصبح غريبا أن أراها على تلك الصورة ، و لو أنني علمت أن زوج تلك الرقيقة قد خانها ، لتوقعت عودتها في صندوق خشبي متأثرة بصدمتها ، و الخيانة صدمة على أي حال ، و لكن الاقسى أن يمر عمرها مذهولة على ذلك النحو ..

(بس أنا قتلت ، قتلت يا يارا !)

قالتها و إنهارت ، و انهار دماغي أيضا و شعرت أنني أنا التي سيمر عمري مذهولة بعد ذلك الإعتراف الذي لم أفق من هول صدمتي بعده ، إلا لأجدها قد غادرت و قد تركت أمامي حساب العشاء ..
لم أنم أنا هذه الليلة !

مصطفى أحمد ، عشرات النتائج يظهرها الفيس بوك ، ساعدتني بعض الصور على تضييق نطاق البحث ، فأمامي ثلاثة مصطفى أحمد ، أحدهم طليق صديقتي ، و ربما ضحيتها ، ها قد وصلت ، مصطفى أحمد ، الأكاديمية الحديثة للعلوم و التكنولوجيا ، لم يظهر الموقع معلومات أكثر ، و لم أكن أنا أحتاج للمزيد ، بدا شكله مختلفا قليلا عن يوم الزفاف ، يبدو أنه قد فقد الكثير من وزنه ذلك ما لاحظته و أنا أتصفح صوره ، صوره التي لا يزال محتفظا بينها بصورة له معها ، توقفت انا عندها طويلا ، طويلا جدا ..

(محدش بيضحك كده غير لو بيحب « قرأتها في رواية لا أذكر أسمها الآن ، و لكنني لم أشعر أنها حقيقة إلا و أنا أدقق في عينيهما ، سعيدان ، عاشقان، كل ما فيهما يخبرك بأنهما سيقضيان العمر سويا ، فلم يخونها إذا ؟ ، و لم تقتله ! ، و لم أتحدث أنا بذلك اليقين عنها كقاتله و أنا أراه حي يرزق ، ولكنها إعترفت

أنا قتلته يا يارا ، قتلته ، لازال إعترافها مترددا في أذني ، و لكن مهلا ، هي لم تقل (قتلته) ، قالت قتلت ، من قتلت ؟ أتكون قد قتلت عشيقته ؟ ، أتكون قد قتلت الشاب و تلك الفتاه ! سيصيبني الجنون و لا شك !
حتى كان لقاءنا الثاني ، بعدها بأربعة عشر يوما ..
«عارفة انا مشيت و سيبتك ليه المرة اللي فاتت ؟ علشان لمحت في عنيكي إستغرابك ليا ، حسيتك مش مصدقة اني قتلت ، علشان أنا طيبة أوي مش كده ؟ ، على فكرة مكانش خسارة فيه إني أقتله ، الخيانة بتقتلك في الدقيقة ألف مرة ، يبقى مستكتره عليه مرة من كل دول ؟

بس إطمني ، أنا مقتلتوش ، مقدرتش ، مش علشان كنت ضعيفة لاء ، بس أنا كنت بحبه أوي ، أوي يا يارا ، بس يومها أنا أخدت قراري إني مش هكمل

معاه ، على فكرة القرار ده أصعب ألف مرة من إنك تقرري تقتلي ، و أنا إترددت فيه كتير أوي ، و إتعذبت بمعنى الكلمة علشان أقنع نفسي بيه ، بس إقتنعت ، و قررت ، و بعدت ..

بس عارفة بقى لما الدنيا تقف أدامك و تحط إيدها في وسطها و تطلعلك لسانها و تضحك ، ده بالظبط اللي حصل ، في نفس اليوم اللي سيبت البيت فيه ، حصلت أكتر حاجة كنت بتنماها ، و اللي لو كانت حصلت قبلها بيومين بس ، كنت حسيت ان الدنيا وقفت أدامي و فردت إيديها و جاتني جري علشان تغنيلي ، نفس اليوم اللي قررت اني هسيب البيت فيه ، عرفت إني حامل ..)
هي المعادلة الصعبة إذا ، زوجة تحولت من عاشقة إلى رافضة ، تكتشف فجأة أنها تحمل في أحشائها حلمها الجميل ، القادر على إعادة الروح لحياتها ، يمكن أن تتناسى كل شيء من أجله ، يبدو أنها حاولت أن تفعل ذلك ، و لكن يبدو أيضا أنها فشلت في أن تنسى أن حلمها ذلك ، هو حلمه أيضا ، فتتحول العاشقة من مجرد رافضة ، إلى راغبة في الإنتقام ، حتى و إن دفعت هي فاتورته ..

(كل اللي بتفكري فيه يا يارا ، صح أنا كنت هموت و أبقى أم ، بس أنا بعد خيانته حسيت إني مُت فعلا ، بس هو لسه هيموت و يبقى أب ، يمكن كانت أخر مرة أحس إني مبسوطة و أنا بقتل حلمه ، لحد ما شوفت إبني بعينيا ، شوفته بعد ما قتلته ، أنا لسه حاسة ملمسه على إيدي ، ملامحة مكانتش باينة خالص ، بس أنا شوفته شبهي ، شوفته شبهي بعد ما قتلته يا يارا ، بعد ما قتلته .. رجعت عن قراري بإني أسيب البيت قولت لأ ، أنا لازم أعرّفه اني كشفته إني حسيت بحقارته ، أعرّفه إني انتقمت منه و أشوف حسرة قلبه ..)

بكثير من الدهشة كنت أصغي إليها ، ولا أدري لماذا لم تفكر في أن تلجأ لأحد قبل أن تتخذ قرارها ، لربما كنا وصلنا إلى نهاية أفضل مما هي عليه الآن ، أمٌّ معذبة قتلت روحاً بداخلها تدعى ابنها ! أي حياة قد عاشتها وستحياها بعد الآن ! فهمت تماماً ماكانت تكابده طوال الفترة الماضي ، الانتقام ليس نهاية الحقد في داخل قلوبنا ، بس هو نهاية للحياة بأكملها لندخل في دوامة لا نهاية لها ، تركتها لتكمل ..

(لما جيت على البيت استقبلني كالعادة بكل الحب اللي في الدنيا ، الحب اللي أنا كرهته بجد ! كرهته عشان ببساطة ممكن أي حد يديه للناس ، تليفوناتها ليه و خروجه معاها ، قعدت أقلب في صفحتها على الفيس بوك .. كلامها القديم وتعليقاته يااااه انا اتضحك عليا كتير جداً ، ماراحش عن بالي نظرتها السخيفة ليا طول ماكانت عندنا في البيت ، و حقها ! يا غبائي و جرأتها ، ازاي ممكن واحدة جوزي بيخوني معاها تيجي تزوره و فبيتي أنا ! كل ده كان قدامي واضح زي عين الشمس ولا محتاج اتنين عشان يفسروه !)

حاولت ألا أبدي اهتماماً لمحاولاتها في إخفاء دموع انصبت غصباً على وجنتيها ، تلك الدموع العصيّة التي لم أرها من قبل برغم كل ماكانت تحمله في قلبها من بؤسٍ و شقاء ، تغيرت جداً منذ الجملة الأولى التي اعترفت لي بها عن حكايتها .. و لاحظ الجميع تغيرها و عودتها التدريجية إلى حياتها الطبيعية ، و قُدِّمت لي جُمل الإطراء و الشكر على ما فعلته و ما لم أفعل لأجلها حتى عادت جزئياً إلى الدنيا ..

وأما أنا فكنت أجهل تماماً ما حصل ! و ما الذي جعلها راغبةً فجأة في الحديث ، أن تفضي لي بكل ما حصل دون أن أطلب منها ذلك و برغم محاولات الكثير ممن حولها أن تفعل ..

(هيكون رد فعله إيه ؟ طبعاً كانت صدمة عمره ، ابنه اتقتل و مين اللي قتله ؟ مراته العزيزة ! .. قوليلي انتي تتوقعي ردة فعله ايه ؟ أي حاجة هتقوليها غلط ! ما قاليش حاجة ، ولا أي حاجة ولا سألني أنا ليه عملت كده ، بانت عليه صدمته جداً ، بس ماكانتش أكبر من صدمتي لما رن جرس الباب و كان صاحبه طاااير من الفرح بيقوله مراته حامل !)
قهقهت عالياً .. عالياً جداً ، لعل أصعب ما يمكننا رؤيته في وجه أي إنسان، هو الضحك و دموع الألم لم تنشف بعد ! الذي خلّد بيكاسّو عبر القرون في الموناليزا هو الذي مزق قلبي عندما وجدته في وجه صديقتي التي تفوق الموناليزا جمالاً و رقة .. و ما أصعب عذاب الضمير ! قتلت ابنها و دمّرت بيتها و زوجها بناءاً على حدسٍ أنثوي غبيّ ! رباه ما فعلت تلك المرأة في نفسها !

(طلبت منه الطلاق ، مابقتش قادرة أبص في عينيه .. ما قبلش قالي لو مابقيتيش عايزة تعيشي معايا أنا ممكن أسيب البيت .. بس ده بيتك اقعدي راجعي نفسك احنا نقدر نجيب عيال كتير و هننسى كل اللي حصل، بس و الله .. و الله مابقيت قادرة أفكر لا في العيال ولا في اي حاجة .. اقولك ايه عن شعوري ؟ كسوف من نفسي ؟ عشان شكيت عشان ظلمت عشان قتلت ! كان أكبر مني بكتير أوي ، قعدت كم شهر على ده الحال بعدين هددته بالانتحار لو ما طلقنيش وخلاني أرجع مصر مع ورقة طلاقي)

لأول مرة ، نظرت إليها بلا عطف ! تفسّر أمامي جميع ما قالته و ما فعلته خلال الشهور التي مضت مذ أن عادت إلى مصر ، بل ربما من غير العادل أن أقول أني تصوّرت أنها كان يجب أن تفعل أكثر مما فعلت ! فمن السهل أن نطلق الأحكام عن بعد . و خصوصا في قصة كهذه فيها مزيج من حب وكره وقتل و خيانة ! تجاوزتها منذ أول يوم قررت أن تعترف به ، و إن كانت

القصة في هذه البساطة ، لم تأخرت بالاعتراف إلى الآن

(جيت مصر .. و مافيش داعي أحكيلك ع اللي حصل لأنك شوفتيه ، بس هحكيلك اللي ماشوفتيهوش ، فاكرة يوم ما خدتيني الساقية ؟ روحتي إنتي تجددي اشتراكك و سبتيني قاعدة ع النيل ، اول ما قومتي لاقيت صوت راجل بينادي بإسمي ، بصيت ورايا لاقيت أمجد ! قالي انه عايز يشوفني ضروري و يتكلم .. و حصل فعلاً
حكالي عن صاحبه اللي حب واحدة و جه هو خطفها منه ! فهمني إنه أنا كنت مجرد رد فعل على خيانة بنت تافهة و نزوة ولد طايش عملوا عملتهم مع مصطفى ! .. بس طبعاً الخيانة نتيجتها الخيانة ، أول ما أمجد حط رجله في إيطاليا فهمته منة إن مصطفى هنا و إن هم لازم يشوفوه لأنها سمعت إنه عايش أحلى قصة حب مع مراته و لازم ترجع الامور طبيعية لأنها متأكدة إنه اتجاوز الموضوع .. أمجد صدق و لما زارونا في البيت لاحظ نظرات منة و مصطفى لبعض و ماكانش ظنه غلط ، ولا ظني !)

للحظة ، توقف عقلي عن العمل تماماً ،و ما فائدة العقل في هذه القصة التي تهدّ كل تفكير منطقي لتدخل بتفصيل جديد بعيد عن المتوقع و المفروض ! اكتشفت أخيراً ما الذي جعلها تستعيد حياتها بعد كل الندم الذي عاقبت نفسها به ، فهمت تماما لم قررت فتح قلبها و التحدث أخيراً

(عشان ما يشكش قالتله انها حامل ، لكن أول ما عرفوا أنا عملت إيه اللعب بقى على المكشوف و دور الضحية اللي نجح مصطفى يلعبه معايا .. أو خليني ما ظلموش و أقولك تأنيب الضمير على ظلمه ليا بسبب خيانة حبيبته و صاحبه ليه ، خلاه يتردد في قصة طلاقي ، لكن منة ما ترددتش و اتطلقت و اتجوزت مصطفى و انا لسه في ايطاليا ! و أمجد رجع على مصر

و أنا أخباري طبعا مقطوعة عن الجميع و أساساً ماحدش هيعرف يوصلّي عشان يفهمني إيه اللي بيحصل من حواليا .. لما أمجد حكالي ، حسيت الدنيا كلها اختلفت من حواليا من احساسي بأبشع عمل ممكن الانسان يعمله ، لأحسن حاجة عملتها بحياتي .. حياتي اللي أنا وقفتها عشان وهم .. و قررت اني هبتديها تاني خلاص .. هبتديها و مش ندمانة على حاجة)

تنهدت تنهيدة كبيرة حتى بدا لي أنها نفثت جميع ما تبقى من الماضي ورحلت ،

وكان هذا آخر ما قالته لي !

القصة الرابعة

يوم من عمري

(١)

- «.. بس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق يا عم سيد».
- «هعمل إيه يا بنتي؟ أكل العيش..».

قالها واضعا يده على يدها في حركه حنونة غير مقصودة، لم تثر تحفظها أبدا.. فهذا الرجل، عم سيد، طالما شعرت نحوه بنوع من الشفقة أو ما شابه، أرجعت رأسها إلى الوراء حتى اصطدمت بالحائط، أغمضت عينيها، ماذا لو تبادلت الأدوار مع عم سيد؟ هل حقا يبرر لها أكل العيش أن تطيع مخلوقا في معصية الله - سبحانه وتعالى؟ هل يسمح لها ذلك بأن تقدم الطعام وشتى أنواع الشراب للمفطرين في نهار رمضان؟

التفتت إليهم، هؤلاء هم زملاء العمل! رددها عقلها ساخرا مذكرا إياها بأوهام الجامعة وأحلامها بالشركة الكبيرة ذات الشهرة العالمية، تنهدت وعيناها ما زالتا تتابعان ثلة المجانين في ذهول، سبق أن تحملت أفكارهم الشاذة وتصرفاتهم الخارجة عن التقاليد، لكن عندما يصل بهم الجنون إلى حد تجاوز حدود الله بذلك الشكل وفي جماعة وبشكل يجعل الاعتقاد في أن أحدا منهم لديه عذر أمرا مستحيلا..

«ربنا يهدي».. تمتمت بها وهي تحاول أن تبدأ التركيز في عملها، أخرجت من حقيبتها أوراقا وقلما وهاتفها المحمول.. أمسكت به وبشكل لا إرادي ذهبت إلى صورته، في كل مرة تنظر إليها تشعر وكأنها تراه للمرة الأولى، تراودها نفس مشاعر الانبهار بملامحه الشرقية: شعره الأسود كليلة شتوية مقمرة سماؤها، عيناه الصافيتان، افترقا منذ ما يزيد على العام.. أتراه ما زال يذكرها؟ أحقا هي تحبه حتى الآن، أم أن تلك المشاعر طبيعية في ظل افتقار حياتها للعنصر الذكوري حتى إن كان صديقا؟

هي لا تعلم، أو بالأحرى لم تكن ترغب في أن تعلم.. وربما كان الشيء الوحيد الذي شغلها هو تلك الأمنية بكونه معها ليشاركها فرحه نجاحها وتخرجها.. كانت تتوق لأن تعرف إحساسه وهو يرى حبيبته «الهبلة» – كما كان يحب أن يناديها - تعمل وتكافح في الحياة.

أخذت تفكر فيه وتفكر، ولم يقطع أفكارها سوى صوت علاء ، أحد زملائها المبجلين، متسائلا عما إن كانت قد انتهت من أداء ما طلبه.. نظرت إليه في بلاهة، وتصورت لو أنا شيئا من السماء سقط على رأسه ذي الشعر الأشعث فحوله إلى أشلاء.. جعلها ذلك التصور الكرتوني تبتسم ابتسامتها البريئة، لكن ملامحه الخالية تماما من البراءة عادت بها إلى أرض الواقع، واضطرها ذلك لترك هاتفها جانبا.. أمسكت بالقلم، وحاولت التركيز..

بعد ساعات قضتها ما بين رسم الورود والأشكال غير المفهومة، وتبادل الحديث مع زميلاتها، انتهت من عملها في ما لا يزيد على عشر دقائق، يا لسخرية القدر.. عشر دقائق هي كل ما استغرقه العمل الذي أضاعت من أجله قرابة الست ساعات، أرجعت المقعد للوراء ولملمت أشياءها وخرجت لتسلم ما أنجزته.. وغادرت حتى قبل أن تستمع إلى التعليقات أو الملاحظات بشأنه..

(٢)

يبدو أن الزمن قرر أن يعوضها خيرا حينما ابتسم لها وقدّر لها مقعدا خاليا في مترو الأنفاق، وهو أمر يكاد يكون مستحيلا في مثل هذه الساعة، جلست إلى جوار رجل يبدو في العقد الخامس من عمره.. وعلى الناحية الأخرى امرأة منتقبة وعجوز وكأنها قد تجاوزت المائة عام..

بدأت في ممارسة هوايتها المفضلة في القطار، تتفرس ملامح الجالسين حولها.. قد لا يتصور أحد مقدار المتعة التي تجدها وهي تحاول تحليل مشاعر الآخرين من ملامحهم.. نظراتهم.. وحتى حركاتهم اللاإرادية، لعل المتعة تأتيها لأن ذلك يشغلها عن التفكير في أمور حياتها ومشاكلها الخاصة.. أخذت تنظر هنا وهناك.. حتى استقرت عيناها عليها..

تلك المرأة العجوز، التي تبدو وكأن الزمن قد حفر معالم وجهها.. تظهر آثار السنين واضحة في معالمها، على الرغم من التجاعيد والأسنان المفقودة التي لاحظتها عندما تثاءبت، إلا أن وجه تلك المرأة يبدو على قدر كبير من الجاذبية.. ابتسمت ابتسامة خفية وحاولت أن تتصور تلك السيدة في سن الشباب، من المؤكد أنها كانت واحدة من ملكات جمال جيلها وربما لا.. فمقاييس الجمال تختلف من جيل إلى آخر.

«هل أبدو جميلة؟».. وجدت نفسها تتساءل وهي تفكر في مقاييس الجمال، بل وجدت أن تلك الأفكار تتلاشى ولم يتبق سوى ذلك السؤال، حاولت أن تتصور نفسها في سن تلك المرأة فوجدت الأمر مستحيلا، كيف ستبدو؟ وهل ستعيش أصلا حتى تبلغ هذه السن، وترى ما الذي يمكن أن تفعله بها الحياة خلال ذلك العمر؟ الحياة التي لم تجد فرصة لأن تجرحها وتركتها، حدث ذلك في ٢١ عاما فقط، ماذا إذًا لو امتد ذلك العمر إلى ٥٠، ٧٥؟

حاولت أن تنقذ نفسها من الاكتئاب فنظرت حولها تستلهم فكرة أخرى،

فوجدت شابا وفتاة في مثل عمرها.. وقفا وبدا من نظراتهما أن شيئا ما يربطهما بوثاق وردي قد لا يلحظه الكل.. لكنها رأته بقلبها، فمن أقدر على أن يعرف الحب مِمَّن عاشه؟ نظرت للفتاة فوجدتها عادية جدا، فاطمأن قلبها من ناحية السؤال الذي راودها؛ فالموضوع في الأساس ليس مسألة جمال ملموس بقدر كونه جمالا في الروح والمشاعر، فها هو المثال الحي أمامها وكأنما جاء مقصودا ليُسكت وساوسها، فتلك الفتاة الـ«عادية جدا» مرتبطة بـ... نظرت إلى الشاب وابتسمت، فما أقربه من الصورة التي طالما حلمت بها! وازدادت ابتسامتها اتساعا حينما تذكرت حبيبها الذي لم يكن يشبه الصورة التي حلمت بها مطلقا، ومع ذلك وقعت في حبه من النظرة الأولى.

وقعت في حبه ولا تزال.. على الرغم من أن الصورة القديمة لفتى الأحلام تراودها من آن إلى آخر.. من يدري؟ هي أصلا لا تعلم إن كانت قادرة على أن تحب مرة أخرى أم لا، وإن كانت.. فتُرى أين ستجد تلك الصورة الأقرب إلى الملائكة منها للبشر؟ وإن فرضنا ووجدت هذه الصورة، فهل سيكون لها مكان في قلبه، أم أن حدود كرم القدر معها تتوقف عند مكان.. في عربة القطار في ساعة الذروة؟

(٣)

جلست مكان والدها الذي تخلف عن الإفطار معهم اليوم وهي تقلِّب وجهها في أركان البيت الذي بدا وكأنه بيت مهجور من فرط الهدوء، لطالما ألحَّت على والدتها عندما كانت صغيره بشأن إنجاب أخ أو أخت تشاركها اللعب، كانت أمها تتعلل آنذاك بأشياء لم تفهمها، خاصة عندما كانت ترى الإخوة من أقاربها يضربون بعضهم البعض، لكنها حينما كبرت اكتشفت أن الأمر لم يكن مجرد مشاركة في اللعب، وإنما في الدفء.. في كل شيء.

تبادلت هي ووالدتها الأحاديث التقليدية حول أسعار الخضراوات والفاكهة وأخبار العائلة، استمعت بغير اهتمام.. فلا جديد.. ما زالت التصرفات الغريبة تصدر من نفس هؤلاء الناس الذين تعودت منهم على التصرفات الغريبة، هذا في نفس المشكلات مع خطيبته.. وتلك لا تكف عن الخوض في حكايات الناس، لا يمنعها صيام ولا غيره.

جلست تتابع التليفزيون بعدما انتهت من تناول طعام الإفطار، ذلك الجهاز شديد الشبه بحياتها الروتينية المملة، فلا جديد فيه ولا مفيد سوى أن تلك الممثلة غيرت لون شعرها وتلك بدت أكثر نحافة بعدما تركت زوجها رجل الأعمال المشهور، جعلها الملل تسترجع يومها من بدايته.. وحتى هذه اللحظة..

طعام الإفطار بلا طعم.. فتى الأحلام، هكذا أخذت تفكر في أحداث اليوم، تارة تبتسم وأخرى تجتاحها رغبة عارمة في البكاء.. حتى وصلت إلى عملها.. أو بالأصح، حلمها الضائع، تحملت الكثير من أجل ذلك الحلم حتى انتهى بها المطاف إلى ذلك المكان، وسط مجموعة من المجانين الذين يعتبر وصفهم بالعته مجاملة لهم، هي لا تستطيع أن تتعامل معهم، والمنطق يقول إنه ليس هناك ما يجبرها على أن تعمل معهم سوى ذلك الحلم، لكن أما لهذا

الحلم من سبيل آخر ليتحقق؟ بالتأكيد للحلم ألف طريق وطريق.. هي لا تسعى نحو طريق أسهل.. إنما أضعف الإيمان أن يكون الطريق مفهوما، كل شيء تتحمل مشاقه مهما طال ولا تتخبط بين جوانبه.. لكن على هذا النحو، هي لن تستطيع أن تخطو في هذا الطريق خطوة واحدة أخرى.

فكرت كثيرا حتى غلبها النعاس، فاتجهت إلى غرفتها وهي تقوي نفسها على قرارها بترك العمل.. لن تذهب، من المؤكد أنها ستشعر بالملل أو الفراغ، لكنها دعت الله أن يرزقها بما هو أفضل.. وما عنده هو الأفضل بلا شك..

(٤)

طمني.. إمتى تقرب مني؟ ده أنا عاشق مستني، واقف في مكاني.. وبنادي عليك..

يا غالي.. إمتى تريح بالـ..؟

أخرجت هاتفها من الدرج بجوار السرير وأغلقت المنبه دون الالتفات إلى تلك الأغنية التي تحبها، أزاحت الغطاء ونهضت مستعدة للنزول إلى عملها.. متناسية كل ما فكرت فيه بالأمس، متراجعة عن قرارها..

كان صوت المنبه إيذانا ببدء الحكاية من جديد..

القصة الخامسة

أكثر من قصة

الساعة السادسة بعد الظهر.. كان ظلام السماء كفيلا بأن يجعل آخر ست ساعات من اليوم متشابهات تماما.. فلا تستغرب إن نظرت إلى ساعتك ورأيتها تدق العاشرة مثلا عوضا عن السادسة، خصوصا أن العوامل المحيطة لن تتغير في كلتيهما.

شوارع مكتظة بالسيارات وأرصفة محشورة بالمشاة من الناس، وأحيانا تجد اختلاطا بين هذا وذاك، أي: سيارات على الأرصفة ومشاة في وسط الشوارع. كان المشهد العشوائي هذا يبدو كمشهد من فيلم مصري تسعيني عندما كان الازدحام هو المشكلة المطروحة للمعالجة الدرامية في تلك الفترة!

كانت تمشي وحدها على الرصيف بخطى تتناسب مع إيقاع الأغاني الموضوعة في قائمة أهدتها مسبقا على الـ«إم بي ثري» التي باتت صديقتها الوحيدة أينما ذهبت: «ماليش دعوة أنا بحاجة.. ولا تسألني عن حاجة.. ماليش دعوة» يبدأ الإيقاع: «ولا تحكي ولا أحكيلك ومش قادرة أخطيلك ولا خطوة».. ترتفع أصوات الآلات الموسيقية ويزداد الإيقاع قوة وسرعة فيزداد كبر خطواتها بشكل متناسب مع الأغنية وتبدو ملامح الوجه معبرة بشكل أفضل من «كليب» الأغنية نفسها.. للحظات كانت تشعر أنها داخل الـ«إم بي ثري» بين حروف كلمات الأغنية وعلى سطور نوتتها الموسيقية.

توقفت بشكل مفاجئ.. وضعت القلم جانبا وتنهدت تنهيدة عميقة، فخرجت من فمها كمية من بخار الماء تدل على شدة البرد في ذلك اليوم الديسمبري الأصيل.. ألقت بنظرها إلى الشباك الذي يطل عليه مكتبها الصغير، كانت تحاول أن تستمد الإلهام لتكمل ما بدأته من القصة، لكنها سرعان ما سرحت بتفكيرها إلى ذكرياتها المعلقة في تلك الحديقة المجاورة، تذكرت قصة حبها مع «ابن الجيران».. الحب الأول.. الحب المغفل على الرغم من أنها دائما كانت تتذكر تفاصيل تلك القصة، لكنها حقا لا تدري لِمَ انتهت وكيف ولماذا بعدت وابتعد، ربما لأنها منذ ذلك اليوم قد سمعت مئات بل آلاف النهايات، عاشت وتعايشت معها حتى نسيت أيّها كانت

لها.. قطعت شرودها بشكل مفاجئ..
استدار إلى صاحبه الذي قطع سلسلة أفكاره ورحَّب به بشكل حار: «أيوه بكتب».. «لا مش مهم، المهم إني شوفتك يا راجل».. «اتفضل طبعا».. بعد هذه الكلمات شعر بأنه من الحكمة أن يكسب دقائق مع صديقه بوجه رحب على أن يغرق مجددا في بحر قصصه التي لا يتمكن فيها إلا أن يجعلها هي البطلة في كل حركاتها وسكناتها واندماجها وكلامها، على الرغم من كل العذاب الذي لحق به بسببها، لكنه كان أسيرا لها يستمتع بعذابه ودموعه وألمه، وأحيانا بشفقة أصحابه وانتقادهم، كان يعرف أنها لم تحبه يوما ولم تعطف حتى على قلبه المعذّب بنظرة واحدة من عينيها الجميلتين.. لم يرَ منهما إلا نظرات التكبر، لكنه على الرغم من ذلك كان يعشقهما ككل شيء فيها، كان يشعر بالتعب حقا من عذابه هذا فيرتاح بالنظر لصورتها، ينسى كل ما فعلته ويداوي نفسه بما كانت هي الداء.. فيزداد قلبه لوعة وحبا وشوقا.. لم يكن يستمع لصديقه، كان يكتفي بالنظر إليه والابتسام..
أترك قلمي جانبا.. دقات الساعة التي تعلن عن بدء دورة جديدة للساعة التالية تفقدني تركيزي.. أصاب بالهلع من مجرد أن أذكر أنني لم أنم منذ ٥٤ ساعة مضت، لم يعد النوم يغريني؛ فالكوابيس التي تلاحقني قد أرهقتني أكثر مما فعل الصحو المتواصل، جرعات الكافيين المكثفة لم تزدني إلا توترا وضغطا على أعصابي.. أبحث عن حالة ثالثة بين الصحو والنوم.. بين الواقع والأحلام.
أشعر أن حالتي تزداد سوءا يوما بعد يوم.. أي واقع اجتماعي قد أحل بي..
إنني في إقامة جبرية أنا من فرضها على نفسي
ترك قلمه جانبا.

القصة السادسة

سارة

لا أدري كيف يمكنني أن أشكر القدر على تلك المصادفة التي وضعها في طريقي، ولست أعلم هل كانت حقا محض مصادفة أم أنه كان لقاءً مدبرًا، اختار له تلك الساعة، التي لن أنساها ما حييت..

كنت أجلس متململا أمام جهاز الكمبيوتر في واحدة من ليالي يناير الباردة، وكان من الصعب عليَّ أن أتبين مصدر البرودة تحديدا.. أهي طبيعة الطقس في ذلك الوقت أصلا، أم أن ذلك القلب الفارغ القابع بين الضلوع قد نشر برودته في جسدي..

نسيت الأمر أو تناسيته، وأخذت أتنقل بين المواقع الإلكترونية، أقرأ خبرا هنا وأتابع تقريرا هناك.. وبينما أنا على ذلك الحال، جذب عينيَّ رغما عني واحد من الردود في أحد المنتديات التي أخذني إليها بحثي عن واحدة من الأغنيات..

أمر عادي قمت به ويقوم به الملايين حول العالم يوميا، لكن ما يقع خارج نطاق «العادي» هو أسلوب كاتبه في الرد، ذاك الأسلوب الذي مستعد أنا لتحدي العالم أنه لا يمكن أن يتكرر في سواها.. في غير «سارة»..

منذ ذلك اليوم، ولمدة ما يزيد على ٦ أشهر، تابعت ذلك الموقع.. تأكدت من كونها هي، كم كنت سعيدا لأنني قد وجدت سبيلا كي أطمئن عليها وأعرف - ولو القليل - عن أخبارها، كنت سعيدا وأنا أرى فتاتي قد نضجت وبدا ذلك واضحا في ردودها.. وتزداد سعادتي عندما أراها تُدخل في بعض أحاديثها كلمات مصدرها قاموسي الخاص أصلا، أو حينما تتحدث عن أغنية كنا استمعنا إليها معا..

واليوم، قررت أن أخرج عن هذا الصمت، أن أسمح لنفسي بالظهور في حياتها مجددا، ولها مطلق الحرية في قبول عودتي إليها أو تجاهل وجودي.. وعلى الرغم من أن كرامتي قد أبت تنفيذ الفكرة، فإن عقلي قد هداني لأن أتبع الطريقة ذاتها التي تعرفت بها عليها..

أمسكت قلمي وكتبت القصة من البداية.. صحيح أنني لم أكن يوما أديبا،

إلا أن الأمر كان أبسط مما تصورت، فمتى كان التعبير عن المشاعر صعبا على العاشق؟ خاصة إن كان البوح بها بمثابة الأمل في عودة الروح إلى قلبه البارد..

كتبت هذه القصة بواسطتي أنا.. سارة، كتبتها وتعمدت أن أنشرها في كل المنتديات التي أشترك فيها، فلربما صدق الخيال، فيراها ويتعرف على أسلوبي، الذي أقصد دوما أن يكون صورة من طريقته ويعلم أنني ما زلت أحلم بلقاء يتجدد به ما قد سرقته الأيام، وأكتب لنفسي يوميا آلاف السيناريوهات التي أتمنى أن يحدث أحدها ونلتقي.

القصة السابعة

حكايات

في ذلك المقهى جلست وحدها، فتاة في أواخر العقد الثالث من العمر، كستنائية الشعر، بنية العينين، متوسطة الطول.. لم تكن على موعد مع أحد، لكنها كانت كالمنتظرة تتلفت حولها كلما دخل أحدهم إلى المقهى لتحسبه (بأمل كبير) هو!

جلست إلى الطاولة التي بجانب الباب، وراحت تنظر من النوافذ، حتى السيارات بالخارج لم تسلم إحداها من نظراتها المتفحصة، وضعت حقيبة يدها على الكرسي المجاور لها، وبقيت ملتفتة إلى الخارج إلى أن قطع خلوتها ذلك «الجرسون»:

- أهلا بيكي، حضرتك تحبي تشربي إيه؟

نظرت إليه طويلا بنظرات شاحبة وعينين متعبتين أنهكهما السهر والتعب.. كانت تبدو وكأنها لم تسمع شيئا مما قال.. استمرت في النظر.

- أهلا بحضرتك يا أستاذة.. تحبي تشربي إيه؟!

- آه، شاي، ميرسي.

مشى «الجرسون» متعجبا من تلك الزبونة غريبة النظرات ليحضر لها ما طلبت.

عاودت النظر إلى الخارج.. كان رأسها مليئا بالأفكار، كانت تفكّر فيه.. بآخر لقاء.. بآخر حديث جرى بينهما..

- هسافر.

- نعم؟

- أنا هسافر، أيوه.. الحياة في البلد دي ما بقاش منها أمل، وكل مدى الظروف بتبقى أسوأ وأسوأ.. كل الأبواب اتقفلت في وشي.. مش لاقي شغل ومش قادر...

لم تسمع باقي الكلام حتى، كيف توقفت الحياة عن منحه الأشياء؟ وما تلك الأشياء التي يريدها غيري؟ سألت نفسها بألم.. وإلى أين سيذهب؟ ولمن سأبقى أنا؟

- يعني إحنا هنا دلوقتي عشان تودّعني؟
- هرجعلك.. بوعدك...
في تلك اللحظات قطعت سلسلة أفكارها أغنية كانت تدور في ذلك المقهى لحظتها.. وفي قلبها منذ سنين: «أنساك.. لا يا حبيبي طول ما انت حبيبي أنا مش هنساك في قلوب...».. كم حملت تلك الأغنية لها من ذكريات.. كم حملت موسيقاها لها من أحداث سعيدة وبهجات قلب وأمنيات.. كيف لأغنية من أربع دقائق وبضع ثوانٍ أن تحمل ذكرى لقصة حب استمرت لسنوات وسنوات؟
«حكايات وذكريات وياك.. بتقول لك وانت عارف أنا أقرب حد ليك»..
كم كان شعورها رائعا عندما كانت «أقرب حد ليه» وكم هو مؤلم عندما غدت ليست كذلك.. كم كانا يسعدان بسماعها كل يوم.. كم أنستهما حزنهما.. كم أعادتهما لبعضهما بعد أيام من القطيعة!
- أنا حاسس إن الأغنية دي اتكتبت علشانّا.. طول الأيام اللي فاتت أنا بنام واصحى عليها.
- «أنساك إزاي يا حبيبي؟ هو إحنا حبيبي هنحبّ جديد؟»..
راحت تغني له..
دمعت عيناه.. دمعت عيناها.. بين دموع الفرح وألم الفراق واللقاء والاشتياق...
قطعت أفكارها ثانية عندما أتى إليها «الجرسون» ليقدّم لها كوب الشاي الساخن، ثم التفت ليعود إلى «البوفيه»..
فجأة تحوّل «الجرسون» إلى «عبد الله» نفسه يمشي.. إنها خطواته نفسها.. طريقته في المشي.. التفّت حولها.. ذلك الشاب الجالس وحيدا يرتشف قهوته.. إنه «عبد الله»!! وتلك هي طريقته في الجلوس.. لقد تحوّل - في ثوانٍ - جميع الجالسين في المقهى إلى «عبد الله».. فهي طريقته في الكلام والحوار والضحك والابتسام.. وتلك هي نظراته وعيناه.. لم يكن شعورها في

تلك الأثناء واضحا؛ فهو الدهشة والخوف والذهول والفرح.. لقد كان مزيجا من المشاعر أفقدها صوابها، فخرجت مسرعة كالهاربة من ذلك المقهى.

بينما هي تخرج وتقطع الشارع مسرعة، وجدته داخل السيارة المتجهة نحوها، فتوقفت في منتصف الطريق بدهشة شديدة لم تتجاوز دهشة السائق نفسه الذي لم يشعر إلا بتلك الفتاة المجنونة التي رمت نفسها أمام سيارته المسرعة.. ارتمت على الرصيف وتجمّع حولها عشرات من «عبد الله»!! لم تكن قادرة على فتح عينيها جيدا، لكنها استطاعت أن تراه قادما.. كان يقترب إليها بابتسامة.. فابتسمت له.. ها قد عاد الغائب.. ها قد صدق وعده.. اقترب إليها أكثر فأكثر وكانت ابتسامتها تزيد كلما اقترب.. إلى أن مدّ يده إليها.. أمسك يدها وأخذها ورحل.. إلى هناك.. إلى السماء.. ليكملا تلك الحكاية معا في عالم الخلود.

القصة الثامنة

زوج هند

في إحدى القرى المنسية في طيات التاريخ، كان يقطن عبد الصبور عبد الجبار.. فلاح أصيل ممن لا يجلسون سوى على الأرض ولا يأكلون إلا «تغميس».. ولـ«عبد الصبور» ابن شاب يُدعى «أحمد».. حنطي اللون، متوسط الطول وحاد السواد في عينيه، شبّ «أحمد» وترعرع في الحقول بين المزروعات والبئر والأغنام، اعتاد في كل صيف على أن يسهر حتى مطلع الشمس، مع أصدقائه من الشباب العائدين من مدارسهم في المدينة، فيستمع إلى حكايات تلك الحياة الغامضة ويسرح بتفكيره بعيدا ليجد نفسه في رحلة خيالية هناك سرعان ما يفوق منها بفزع؛ إذ إنها دائما كانت مرتبطة بسرقة أو «مصيبة» أخرى.

وهل هناك أجمل من القرية ومن رائحة الصباح فيها؟

لطالما سأل نفسه هذا السؤال، لكنه أفصح به مرة لأصدقائه من شلة الأُنس الصيفية، ففوجئ بكمية من السخرية لم تكن تخطر له على بال، كيف يحبون تلك الحياة المعقدة؟ تبا للسطحية!

كانت سهراته تلك تشعل صدر أبيه بالغضب، فليس السهر من شيم الفلاحين، كما أن الضحك والمسامرة كانا يحدثان ضجة في القرية كرههما جميع سكانها ولم يُلَم عليها سوى «أحمد» و«عبد الصبور»، لعدم وجود الجرأة عند أي كائن في القرية ليلوم أو يعتب على أحد أولئك المثقفين.

لاحظ «عبد الصبور» ذات يوم أن «أحمد» بدأ يهجر تلك السهرات، يخلد إلى النوم في ساعة مبكرة ويصحو منه قبل أي أحد منهم، وأصبح يلتزم بأوامر أبيه وتعليماته ويطلب رضاه. بعد أقل من أسبوع فاجأه بما لا يتوقع: «أنا عاوز اتجوز يابا..». لكن من أين له الحظ لتكتمل الجملة بالسعادة نفسها إلى آخرها: «هند بنت العمدة»؟

أول ما سُمع خلف تلك الجملة هو صرخة «أم أحمد»، ليست بسبب المفاجأة، لكن من ذعرها الذي تلا صفعة عبد الصبور لأحمد، كردّ فعل مبدئي.. خرج الولد من المنزل وبكت الأم وصمت الأب وجلس وحده لمدة

ثلاث ساعات، لكن الأمور عادت لمجاريها في الليل؛ حيث إن «الواد البار ما يخرجش عن شور أبوه» و«عيب أوي لما أهل البلد يعرفوا إنك ما بتكلمش أبوك».. ليس هذا بالتحديد ما دعا أحمد للرجوع إلى المنزل ولا عدم وجود مكان آخر للمبيت فيه، لكنه كان مصرّا على خطبة هند، صارح أمه بحقيقة قصة حبه العذري، وكيف أنها بادلته النظرات، لا بل والابتسامات أيضا، على طريق البئر. ولم يأخذ الموضوع من الأم خمس دقائق لجعله يعترف بأنه حادثها خلسة على الطريق خلف شجرة تين كبيرة، وصارحها بحبه فخجلت وركضت بعيدا، ثم رمت له في اليوم التالي «جواب» قرأه أحد أصدقائه فأقسم إنه «جواب حب وهيام» وحاول صديقه هذا الكثير ليعرف مصدر الرسالة، لكن شهامة أحمد حالت دون فضح البنت وتشويه سمعتها، وأخذ الموضوع على بعضه إلى اليوم التالي لتقتنع العائلة كلها بأن «العمدة مش هيكسفنا يامّا».

في اليوم التالي ذهب عبد الصبور وابنه ومعهما أهم أعمدة القرية إلى منزل العمدة، ليطلبوا يد «المحروسة بنته» لأحمد، ابن عبد الصبور، لكنهم صدموا عند أول سؤال من العمدة لعبد الصبور: «هتقعدوها فين؟».. فقد فاته أن العمدة وبنته لن يقبلا بغرفة أحمد الصغيرة داخل منزل والديه المكون من غرفتين فقط. حاول العمدة اختيار أقل الألفاظ تجريحا بالضيوف، ورحب بهم في أي وقت يجد به أجوبة عن أسئلته المتعلقة بمعيشة تليق ببنت العمدة التي بأي حال «لسه صغيّرة» كرفض أدبي.

مرّ أسبوعان أو أكثر على هذه القصة وأقيمت السهرات في منزل عبد الصبور كل ليلة لنقاش أهم تحول في حياة أحمد: السفر إلى المدينة والعمل هناك، نعم المدينة التي طالما كرهها لكنه مُجبر، سيضحي بعدة أعوام مقابل أن يعيش باقي عمره بصحبة من أحب وعشق، خاصة أنها نالت ما نالته من عذاب بعد أن عرف العمدة بقصة «الجواب الغرامي» الذي لم يتحدث عنه أحد سواها في أول محاولة من أبيها لاكتشاف حقيقة تجرؤ عبد الصبور

وابنه على طلب يدها.
قرر أحمد السفر، لكن لم يخبر أحد هند عن تطورات الأمور، فقد بدا لها الأمر فقط أن أباها رفض أحمد واكتشف أمرها وسافر أحمد بعد أن «طفش» من وضع القرية ومن أبيها.
نزل أحمد إلى المدينة وعانى كثيرا إلى أن وجد عملا لدى أحد النجارين الكائن محله قرب إحدى المقابر.. ضحى كثيرا وكدح كثيرا وتحدى الكثير في سبيل توفير أي أموال يرجع بها إلى القرية ليخطب هند، فطالت السنة إلى ثلاث سنوات كان قد أقسم خلالها إنه لن يرجع إلى القرية إلا وبيده ما لا يخيب ظن هند به. وذات يوم بذل أحمد مجهودا إضافيا للانتهاء من شحنة مستعجلة مقابل زيادة لا تقل عن خمسين في المائة من ماهيته الأسبوعية التي كان يتقاضاها، عمل بجدٍّ وإخلاص، ما جعل الوقت يمر دون أن يشعر فيضطر إلى الخروج من العمل في وقت قد تجاوز منتصف الليل بساعات، مرّ إلى جانب المقبرة بحكم طريقه.. كانت المرة الأولى التي يرى فيها المقبرة ليلا.. بعد ساعة ونصف الساعة كان الفجر قد حل، سمع أحد زملاء أحمد صوت صراخ هيستيري في الطريق إلى المقبرة، ما جعله يجمّع كل ما أوتي من شجاعة وجرأة ويتحصن بـ«شاكوش» ضخم وقراءة المعوذات عشر مرات، عندما اقترب إلى المقبرة أكثر وجد أحمد في حالة هيستيرية يصرخ وكل عضلة من عضلات جسمه تتشنج بشكل منفصل عن الآخر: «مالك يا أحمد؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. يا أحمد قولي طب شوفت إيه بس؟».. من يومها لم ينطق أحمد بحرف، لم يسمع منه إلا صرخات الرعب تدوي في كل وقت.
أما هند، منذ سفر أحمد، فقد عاشت ثلاثة أعوام عانت خلالها وهن الحب وعذابه إلى أن أصابها مرض عضال استعصى حتى على «سي فتحي» الممرض الذي كان يأتي كل شهرين لزيارة والديه في القرية، إلى أن أصاب المرض منها مقتلا فماتت.

تزامن خبر وفاتها مع خبر جنون أحمد في المقبرة، فتعالت الأصوات حول تلك المصادفة العجيبة، أحد الفلاحين فسّر الأمر فقال إنه يعتقد أن روح هند قد ذهبت إلى المقبرة لتزور أحمد في عمله، فمن فرط المفاجأة «اتجنن».. أحدهم أجابه: «اسكت ليسمعك العمدة، بنته راحت روحها لعند واحد غريب عنها! الله يستر على ولايانا». وقال الآخر: «صحيح يا اخواننا، هم البنات للممات وبعد الممات أهو..» ولم ينتهِ القيل والقال إلى أن أصبحت «روح هند» عارا على العمدة وسيرتها على كل لسان.

القصة التاسعة

حكاية من أربع زوايا

على أريكتين متقابلتين جلسنا نحن الخمسة، انضمت هي إلى مجلسنا مؤخرا، قبل انضمامها كنت أتفرس ملامح الجالسين حولي، يشتد زحام «المترو» في هذه الساعة، كم تمنيت أن يختفي ذلك الاختراع العجيب من أجندة «روتينياتي» اليومية، لكنه كان أمرا لا مهرب منه ولا مفر، فالطريق من «كوبري القبة» حتى «حدائق حلوان» لا حل أمثل معه ولا أرخص، صراحة، أفضل من مترو الأنفاق، وقد كان..

«لا أبالي ما دمت جالسا».. قلتها لنفسي مبتسما، خاصة إذا حالفني الحظ، وجلست - كما أنا اليوم - إلى جوار الشباك، أتنفس نسمات يناير الباردة من فتحة صغيرة أفتحها رغما عن الجالسين، بدعوى «بجد لو ما فتحناش الشبابيك هندفا جدا وهنعيا أوي لما ننزل، كلنا».

أعجبني الرجل الذي جلس أمامي، لشدة ما ذكَّرني برئيس الوزراء الذي أحببته حبا جما وقتما ولَّيت اهتماماتي شطر السياسة لفترة، يبدو قد تجاوز الخامسة والستين من العمر، إلا أنه كان أنيقا بغير تكلف، جلس مسالما، أراه تارة ينظر إلى يديه كالأطفال حين يستغربون أجسامهم صيفا عندما يلبسون «النص كم» لأول مرة، وأخرى هو شارد في الصور التي لا تظهر إلا لتختفي مع حركة سير المترو، حتى جلست مع أمها، فاستحوذت على بصره، وأكاد أجزم أنها قد سرقت قلبه أيضا..

جلست أول ما جلست على رجل أمها، في البداية لم أكن لأصدق أن هذه المرأة أمها، أو أنها أم من الأساس، لا تتناسب طبيعة ملابسها مع كونها أما، أو أنني أنا الذي قد تخلفت عن ركب الحضارة فظننت أن موضة الـ«لو ويست» - التي أكرهها كره العمى - تقتصر على زميلات كورس «الإنجليش»، وأن الكعب العالي - الذي يضاهي ارتفاعه برج القاهرة - لن أراه إلا في عروض الأزياء التي تتابعها خالتي بشغف، لكنني تأكدت من كونها أمها عندما قالت لها في رقة وقعت من نفسي موقع الابتذال: «يا حبيبة قلب مامي».

لم يطُل جلوس «حبيبة قلب مامي» على رجليها طويلا؛ حيث سارعت المرأة بإجلاسها بجواري قبل مُضي ثانية على قيام ذلك الرجل الذي جاورني لمحطتين نام فيهما وكأنما لم يذُق طعما للنوم في حياته، دون أي اعتبار لتلك الوجوه المرهقة لحد الموت، التي بدت وكأن أصحابها قد وقفوا على جمر متلهفين على مقعد خاوٍ، أخذت الطفلة تنظر يمينها ويسارها، وفي كل مرة كانت تثبت عينيها البريئتين في عيني الرجل بصورة مثيرة للاستغراب..

(١)

الزاوية الأولى

ياه يا ياسر، بنتك زمانها أد البنت الحلوة اللي أدامي دي، غيابك طال أوي يا ابني..
يقتلني غيابه، كنت أبكي كل ليلة كما الأطفال، كان يحدثني فيضحك فتضيء ضحكاته حياتي، تضاءلت مدة المكالمات، كنت أعزي نفسي بأن ما يوفره هو أولى به، خاصة بعد ما أخبرني به عن أمر زواجه، تضايقت وصرخت فيه: «بقى تتجوز يا ياسر من غير ما تقولي حتى؟ حرام عليك يا ابني.. ده انت اللي باقيلي من الدنيا»، لكنني نسيت الأمر برمته حين أخبرني أن زوجته قد أنجبت طفلة، على الرغم من أنه لم يشاركني فرحته حينما عرف أنها حامل..
انعدمت مكالماته إلا من اتصالات الأعياد: «يا حاج مش تتعلم تدخل ع النت؟ كان زمانك صوت وصورة معايا كل يوم، ولا بقولك إيه، ما ابعتلك تذكرة أحسن»، لو أنني لم أكن واثقا من أنه يقولها مجاملة لرحلت إليه، لكنه كان باردا، اكتسب من أوروبا جمودا عجيبا، أو ربما لم أرَ أنا ذلك من قبل، كنت معجبا بطموحه، وها هي أحلامه تقتلني قتلا بطيئا..
ربما كان ذلك هو طبع جيلكم يا بُني، أكاد ألمح قيودا تتكسر في عيني الشاب الجالس أمامي، لكنني اشتقت إليك يا ولدي، لا ألوم نفسي على سماحي لك بالسفر، بل ألومها على اليوم الذي طلقت فيه والدتك، بل وكنت أحمقَ يوم تركت أختك لها، تأزمت الأمور بيننا، تصورت أن عقابي لها أن أتركها وحيدة فصرت أنا الوحيد في الدنيا، من يدري؟ ربما تزوجت فما الذي يمنعها بعد أن ماتت أختك؟ ترى بِمَ سميتها؟ كنا قد اتفقنا على اسم يسرا، ربما غيرته بعد أن تغيرت نحوي، لكم اشتقت إليك يا ياسر..

(٢)

الزاوية الثانية

شعب متخلف! الراجل هيقوم ياكلني لمجرد إن رجل دارين خبطت في كتفه، أنا ما كانليش قعاد في مصر، ربنا ينتقم منك يا ياسر..

كنت كسائر الفتيات أحلم بفستان أبيض وزوج يأتيني على حصان عربي كفرسان الأفلام التاريخية، تصورت أن فرصتي قد صارت أكبر بعد رحيلي مع والدي إلى أوروبا، رأيت في أحلامي شابا أشقر، وفي حلم آخر رأيت عينين زرقاوين يعلوهما شعر بني، حتى أحببت ياسر، الشاب المصري شكلا وموضوعا..

«هتتجوزي واحد من ع النت يا ياسمين؟!».. صدقتِ يا أمي، كنت بلهاء حينما تصورت أنه سيأتي من أجلي، فالحقيقة أنه لم يأتِ إلا من أجل أحلامه وطموحاته، أناني.. حاولت إقناع نفسي بأنني جزء من هذه الأحلام أو أنه يحلم لأجلي، إلا أن محاولاتي جميعا قد باءت بالفشل..

تحول إلى رجل أعمال محترف في وقت قياسي، حتى إن علاقتنا قد دخلت في إطار «البيزنس»، لا يصطحبني إلى مكان إلا إذا كان لديه عمل هناك، ولا يُعرِّفني إلا بِمن لهم معه مصلحة، بل وأرغمني على البقاء معه حتى بعد أن عرض عليَّ أبي الرجوع معه إلى مصر على أن يزورني هو من وقت لآخر، لمجرد أنه يعرف أن بقائي سيسهل عليه أمورا كثيرة، لن يفلح هو (كرجل) فيها..

أقر لك بغبائي يا ياسر، فما الذي كنت أنتظره من شخص ترك أباه المسن وحيدا سعيا وراء أحلامه؟ بل كيف رباك هذا المسن الذي تخلى عن زوجته الحامل، بل وطار عقله شماتة حين وصله خبر موت ابنته؟ ما الذي كنت

أنتظره منك؟

أفقت من شرودي حينما جلست بجانبي، عادت «حبيبة قلب مامي» إلى موقعها معلنة عن وجود مقعد شاغر جلست هي عليه، بدت جميلة حينما رأيتها تستند على أحد أبواب المترو، حزينة، وبدا توترها واضحا حينما أخذت تحرك رجليها في عصبية..

(٣)

الزاوية الثالثة

هو أنا كنت غلطانة لما صارحته بالحقيقة؟

كادت الأفكار تعصف برأسي، تركني فجأة متعللا باتصال مهم، انتظرته لما يزيد على الساعتين لكنه لم يأتِ، اتصلت به فوجدت هاتفه مغلقا، كان ذلك كافيا لي لأن أفهم أنه قد ذهب ولن يعود..

أنا لا أريده، لكنني أود فقط لو أنه أخبرني عن المشكلة في أنني نشأت أنا وأمي بلا رجل في منزلنا، أكان لنا اختيار في موت أبي؟ لقد حافظت أمي على سمعتها وفرضت سياجا حولي لم أفهم له سببا إلا اليوم: «يا حبيبتي علشان ما حدش يقول خارجين طالعين براحتهم مالهمش راجل»، لن أنسى سعادتها حين أخبرتها بأن زميلا لي يطلب مقابلتها، عرفت الراحة طريقها إلى قلبها، سيكون لنا رجل يدفع عنا عيون الناس وحديثهم على ما يستحق وما لا يستحق، ترى كيف ستستقبل الخبر؟

لِمَ رحلت عنا يا أبي؟ آه لو أنني رأيتك، سأرتمي بين ذراعيك، ثم أسير ويدي بيدك، وبيدي الأخرى أصفع كل من راودته نفسه وأشار إلى أمي أو إليَّ بسوء، ثم آخذك حيث هذا الأحمق، فأخبره أنني لم أعد أريده.. أحمق..

همَّت بالنزول فوددت لو أنني قادر على متابعتها، لكنني لما نظرت إلى اسم المحطة لأجدها «حدائق حلوان» ابتسمت وأدركت أن القدر قد أعطاني فرصتي، وقفت بجانبها وتأملت انعكاس وجهها الرائع على زجاج الباب، بدت أجمل بكثير عن قرب، لم أشعر إلا ويدي تحتضن كفها، فوجدتها تهمس لي برقة:

اسمي يسرا..

وهنا، حكاية أخرى..

(٤)

الزاوية الرابعة

القصة العاشرة

ربما هو الحب

الخامسة..
يغلق الباب خلفه، خالعا حذاءه، وخالعا شخصيته معه..
خائن، أعرف ويعرف هو أنني أعرف، لكن ثمة شيئا ما يمنعه أن يعلنها أمامي ويمنعني أن أصارحه بحقيقة صورته في نظري، مع أنني أعرف أنه يعرفها..
ربما هو الحب..

خارت قواي، وتوقف عقلي عن التحكم في مشاعري بشكل كلي في ذلك اليوم الذي اعتلى فيه سقف سيارة، معلنا حبه لي بأعلى صوته، في قصه تناقلتها الجامعة لأسابيع، قصة مجنون ليلى..
أنا ليلى، وهو المجنون الذي لم يبقَ مجنونا لوقت طويل، ما زال يحبني، على الرغم من الوقت والخلافات، يحبني، وما زلت أنا أشعر بذلك، حتى إن لم يقُل، حتى إن لم يفعل ما دل على ذلك، يكفي أنه تحملني خمسة عشر عاما، حرمته فيها نعمة كونه أبا..
أذكر ذلك اليوم، منذ قرابة السنوات العشر، تلقيت خبرا كالصاعقة، تقريرا كان يفيد باستحالة قدرتي على استضافة جنين في أحشائي، تفاصيل طبية وعلمية أذكرها جملة وتفصيلا، وكلمات مجاملة وتعزية ألقاها عليَّ الطبيب بلا إحساس، استقبلتها بأذن صمّاء، أعياها صوت دقات «الهون» وصيحات بكاء طفل لن يُسمعها كلمة ماما ولا حتى في الخيال بعد ذلك اليوم..
يومها، قصدت أن تموت دموعي في اللحظة التي وقفت فيها أمامه، مددت يدي بدفتر التقارير الطبية، طوّقني بيديه، بكيت كما لم أبكِ بحياتي كلها، حاولت أن أعرض عليه فكرة الزواج بأخرى، أسكتني قبل أن أبدأ، أخبرني أنه لن يكون زوجا لغيري، وأنني أنا ابنته وحبيبته..
لكنه خائن..

لِمَ لمْ يتركني؟ لِمَ لمْ يستقر مع زوجة أخرى وينجب؟ لِمَ؟
وإن لم يكن راغبا في الأطفال، ما الذي دعاه للخيانة؟
اكتشفتُ خيانته في ظرف استثنائي، اكتشفتها وأنا بين النوم واليقظة، على كرسي قريب من سريره بالمستشفى وقت أجرى عملية جراحية، أخرجه فيها المخدر عن صمته الطويل، أخذ يروي مغامراته العاطفية، كمراهق لم يتجاوز الخامسة عشرة، رواها بفخر على الرغم من المرض، لم يُثنِه شيء عن المباهاة والمفاخرة، ولا حتى صوت دموعي المكتومة، كأنها جاءت من داخل بئر عميقة، لقد كان غائبا عن الوعي..
لكنه جعلني بعدها غائبة عن الحياة..

بحثت بين أوراقه، بين أشيائه، لكن كل شيء كان طبيعيا، لدرجة أكثر من طبيعية، كانت أسماء صديقاته مدونة على كل شيء كان حولي، على كل زجاجة عطر دون اسم صاحبتها، وتاريخ، ربما رمز لتاريخ الإهداء، أو تاريخ بداية العلاقة، على حاسوبه الشخصي الذي ما زالت كلمة المرور فيه تاريخ زواجنا، رسائل بريد إلكتروني تشرح تفاصيل لقاءات، منها البريء ومنها ما هو دون ذلك، كان كل ما يثبت إدانته حولي وأمامي طوال الوقت، كيف لم أنتبه؟
كيف لم أنتبه إلى أن زوجي يملك وجها آخر لا أعرفه ولم أرَه، يظهر وقتما يشاء، ويخفيه بمجرد عودته؟
ربما كان مريضا، مريضا نفسيا..
ربما كنت أنا المريضة، ربما كان العيب فيّ أنا!

ركضت حيث المرآة، قاربت الأربعين، وأنت لن تصدق هذا إن رأيتني، فهو أمر لم يصدقه من سبقوك إلى ذلك، ما زلت في نظر الجميع امرأة ثلاثينية رائعة، وقد صرَّحت لي أمي بأن تلك نعمة قدرها لي الله، ليعوضني نعمة

الأمومة، صرخت فيها، أخبرتها أنني كنت سأكون أكثر سعادة لو أن لي طفلا، طفلا واحدا، حتى لو زاد وزني على الطنين، لكنني أم..
لكن مهلا، مَن أكثر سعادة؟ هل تملك إجابة عن هذا السؤال؟
تلك المرأة الجميلة، ذات الشعر الأشقر المنسدل على كتفيها والعينين الواسعتين العسليتين والأنف الصغير الحاد، صاحبة القدر الأوفر من النوم والاهتمام بنفسها، سواء كان ذلك الاهتمام منها أو من قبل المحيطين بها كأنها قطتهم المدللة، أم تلك السيدة ذات البشرة الخمرية التي لا يشغل بالها سوى طعام تعده بلا فن، تبدأ بعدها في وصلة شجار مع زوجها حول عشرة جنيهات إضافية أنفقتها في سبيل سعادة أبنائها الذين يشنفون أذنيها ليلا ونهارا بكلمة «ماما»، والتي يبدو أنها من فرط ما استمعت إليها، أصبحت لا توليها اهتماما؟

صراحة، أنا أفضل النموذج الثاني، ودون التفلسف والدخول في تفاصيل، فأخبرني ما الذي يمكن أن يفعله زوجها حين يملها، حين تصل أنفه رائحة بصل وثوم أبت أن تغادر يدها: بعض الشجار؟ سيترك البيت؟ سيخونها؟
وأنا أيضا زوجي يخونني..
ماذا لو كنت أنا الخائنة؟

لا أظن أن امرأة ستتوافر لها كل تلك الفرص لخيانة زوجها، المتوافرة حولي طوال الوقت بحكم مستوانا وطبيعة علاقاتنا الاجتماعية، ولا أتوقع أن تكون أي امرأة بذلك الغباء أن تترك الفرصة لأن ترد له كل ما فعل، وكل ما هي واثقة أنه سيفعل، العين بالعين، والبادئ أظلم، وهو البادئ، وهي فرصتي لأن أكون الأظلم..

في محل لبيع الورود وقفت أتابع انعكاس صورتي على الزجاج، لم أبالغ

في أناقتي ولم أشعر أنني أرتكب فعلا غريبا، سأوطن نفسي على ذلك بل وسأضمه إلى أجندة روتينياتي، سأشتري ورودا وأهديها لأول صديق يخطر اسمه ببالي، ستستدرجنا الورود إلى أحاديث هاتفية تطول مدتها تدريجيا، وسأخرج الموضوعات إلى مائدة عشاء في مكان هادئ، سأخونه، سأسترد كرامتي..

- اكتب العنوان من فضلك، ٢٥ شارع جامعة الدول العربية، المهندسين..

كان ذلك عنوانه، عنوان زوجي، الخائن الذي لم أقوَ على خيانته..

لماذا؟

لا أدري..

ربما هو الحب..

القصة الحادية عشرة

سنة حلوة يا جميل

- ألو.
- إيه يا أمولة، يعني منفضالنا ولا سألتي في حد من الصبح، انتي مظبطة مع غيرنا ولا إيه؟
- ههه.. غيركم إيه بس؟ هو أنا لو ليَّ غيركم كنتي شوفتيني رديت عليكي؟
- طب يلا بقى البسي بسرعة وتعالي خديني عشان الكل مستنيكي في النادي، هي كانت المفروض مفاجأة بس معلش بقى مفيش حد ياخدني.
- حاضر يا ست سلمى وهبقى أعمل حسابي أتفاجئ، ساعة بالظبط هكون عندك.
- صحيح صحيح، بقولك إيه..
- ها؟
- كل سنة وانتي طيبة يا أحلى أمولة في الدنيا، وربنا أنا بحبك أوي.
- وانتي طيبة يا فرحة قلبي.
- ساعة بالظبط ما تتأخريش ثانية، ماشي؟ يلا سلام.
- سلام.

وُلِدَت سلمى أمام عينَي، كنتُ أنا أول من حملها بين يديه، وأنا من اختار لها ذلك الاسم، بتفويض من أبيها وأمها مروة، مروة التي كانت دائما أختا لي، أختا لم تنجبها أمي، لكن الأقدار ورأفة الله - سبحانه وتعالى - ما وضعها في طريقي، منذ سنين وسنين.. تعرّفنا في أثناء حياتنا الجامعية، وتآخينا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ وأحاسيس.. أصدقاء عُمرٍ كنا وبقينا، بل عائلة واحدة، وها هي ابنتها الجميلة، ترعرعت أمام ناظري وبين يدي، ولعل لي فيها كما لمروة التي لا تكف عن إخباري بهذا، إلى أن أصبحت قمرا يضيء الدنيا، فتاة عشرينية جميلة، تفوق جمال والدتها التي لم تستطع السنون - على الرغم من محاولاتها - أن تفسد رونق ملامحها.. بل زادتها وقارا، ذلك الوقار المحبب الذي يجعل سلمى تقول لي دائما: «بصي الست دي كبرت إزاي! انتي لازم تقوليلها يا طنط»!

كانت الروزنامة تشير إلى السادس من شهر الأكاذيب، شهر أبريل، المصادف ليوم ولادتي - أنا أمل - منذ ثلاثة وخمسين عاما.. ثلاثة وخمسون؟! كم مضى من العمر يا الله؟! ولن أقول إن تلك السنين والعقود قد مضت بي كلمح البصر، بل إنني قد رأيت فيها ما يكفي سبعة أشخاص على مرّ ستين عاما.. اتجهت إلى المرآة، لم أشعر أني قد كبرت إلى هذا الحد، وهذا الحد أستنتجه عندما أذكر شكل أمي وهي في نفس الشارع من العمر، لكن المرآة لم تكن لتخبرني بردّ الفعل نفسه، ربما وكما يقول الجميع لي؛ لأنني لم أتزوج.

آخر ثلاث كلمات، عادة، ما يودّ الكثيرون لو أنني أضيف لها كلمة رابعة «لأنني لم أتزوج (بعدُ)».

ولم أكن لأحبط أحدهم وأرفض، لكني اليوم شعرت أنها كلمة مضحكة بحق، فما الذي ستنتظره امرأة خمسينية مثلي «بعد»؟!

لم أرفض الزواج يوما، وبالطبع لم أتمناه.. لكن مشكلتي كانت في شيئين، الأول: أن الزواج قد عنى لي بناء حياة جديدة، جديدة بكل المعاني بالنسبة لي، ومسئوليات أمام فرد فأسرة فمجتمع فأمّة، وهو ما لا طاقة لي على احتمال مجرد التفكير به، إلا إن وجدت شخصا أقنعني بأنه سيحملها معي.. وهنا تكمن المشكلة الثانية: اختيار ذلك الشخص، ولطالما كانت معضلة الاختيار عائقا بيني وبين الكثير من الناس، بل كانت عقدتي في الحياة أنني أحب أن أختار وليس أن يقع عليَّ الاختيار، وربما كان هذا سببا وجيها جعل مروة أقرب لي من جميع إخوتي، ولأن الأعراف اقتضت أن اختيار شريك الحياة هو مسئولية الرجل، فتقبلت الموضوع بصدرٍ رحب وتسليم كامل وقناعة.

لم يشكّل لي الموضوع أي أثر نفسي، ولم تزعجني كلمة «عانس» التي تطلَق عليَّ دائما، ولا أدري لم يتضايق البعض منها! هل تتضايق الأرملة من كلمة «أرملة»؟ بالطبع لا، فنحن شعب نحب أن نطلق الألقاب والتصنيفات بناء على الحالة الاجتماعية للإنسان، وليس في ذلك من العيب والحرام شيء! لكن

العيب مثلا هو أن تجدني إحداهن أرتدي «سويت شيرت» و«كونفرس»، فهل من المعقول أنني لا أشعر بسني غير المناسبة لهذه الملابس؟

أو مثلا لو صدر عن هاتفي وهو يرن أمام أحدهم أغنية لعمرو دياب، فما الذي تنتظره امرأة في سني من المشاعر والحب و«الكلام الفاضي ده»؟ حقا وصدقوني إن قلت لكم إن كل هذا لم يكن ليشغل بالي أكثر من بضع دقائق عند كل موقف فيها.

لكن ربما ما كان يقض مضجعي، باستمرار، هو تلك النظرة المشفقة التي لطالما وجدتها في عيون أبي وأمي وهما يتحدثان عن مصيري بعد رحيلهما، دموع أمي وهي تستنتج في آخر الحديث أنني سأبقى وحيدة بعدما هاجر إخوتي، كل منهم إلى بلد.

لكني بعد قضائهما لا أدري فعلا لماذا صوّرا لي الدنيا بهذا البؤس وهذه الوحدة، فأنا الآن بين أعمالي وأصدقائي أكاد لا أجد وقتا لخلوتي المحببة، ومن كان يدري ما الذي ينتظرني لو أنني تزوجت، بل وأنجبت؟! هل تراهم سيكونون بجانبي الآن، الأبناء البررة، أم أنهم، وكجميع الأبناء وفي أول فرصة، سيفضلون العيش بعيدا عنا، في مجهول يدعى تجاربهم الشخصية؟! وأبقى أنا في النهاية وحدي، أو مع من سأُبقيه وحده، لماذا ذرفتما الدموع يا والدَي؟ فلن يدرك الميّت إن تنبّه أحدهم إلى وفاته ساعتها أو يومها أو ما إلى ذلك.. ولن يكترث بالتأكيد إلى الأحاديث المشفقة عليه وعلى ميتته تلك التي ستُحكى في عزائه الذي بالطبع لن يضيره إن أقيم أم لم يُقَم..

قطع سلسلة الأفكار سوداوية النهاية جرس الباب في الوقت المناسب، لأجد أمامه مروة وسلمى وصديقات لنا.. ثم دوّى في المكان صوت مفرقعاتٍ «أقسم» إنها لا تناسب سني، غنّى الجميع من بعدها: «هابي بيرث داي تو يو.. سنة حلوة يا جميل».

القصة الثانية عشرة

لا أحد سيعزي بالميت

مات عمر، وتعددت السيناريوهات حول اللحظات الأخيرة التي سبقت موته، فمنهم من قال: «انتحر» ومنهم من قال: «سمع دوشة ع السلم ولما جري ورا الحرامي اتخانق معاه ورماه من فوق السطوح» وآخرون يقولون: «كان بيظبط الدش ما اتوازنش ووقع»، لكنه مات بكل الأحوال ولبست أم عمر الأسود وبكت كثيرا منذ أول لحظة.. وها هي تستمر بالبكاء عند كل «عظّم الله أجركم» تقال لها.

في العزاء تجلس بجوار أختها أم محمود على يمينها وعلى الطرف الآخر ياسمين خطيبة عمر.

أم محمود: ارحمي نفسك يا أم عمر، اللي انتي بتعمليه ما يرضيش ربنا، وانتي يا ياسمين حرام يا بنتي ربنا ما قالش كده.

عمر: قوليلهم والنبي يا خالتي.

أم عمر: اللي مزود ناري مش عارفة الولد مات ولا اتقتل ولا... (تبكي).

ويرتفع صوت بكاء ياسمين.

عمر: ولا إيه يا ماما هو انتي مصدقاهم؟

أم محمود: صلي ع النبي صلي ع النبي.. مش وقته أصلا الكلام ده، ادعيله بالمغفرة والرحمة بكل حال.

عمر: أيوه قوليلها يا أم محمود.

أم محمود: وانتي يا ياسمين، أهو تلات أيام وانتي صاحية نايمة هنا.. خلاص يا حبيبتي روحي ارجعي بيتكم وارتاحي يا حبيبتي.. ده قضاء ربنا وقدره.. وربنا هيعوضك أكيد بالأحسن.

عمر: نعم؟! أحسن إيه؟ هو أنا لحقت؟ عايزة تجوزيها لحد أحسن على طول؟!

جففت أم عمر دموعها ورحلت ياسمين إلى منزلها بعد المحاولة رقم ١٤ لأم محمود.

وذهب عمر محبطا إلى تعزية الرجال ليجد الناس يرحلون.. وجد نادر

وحازم خارجين من التعزية وعليهما علامات الحزن الشديد.
نادر: مش قادر أصدق أقسم بالله.. ازاي حصل معاه كده؟
حازم: تفتكر حصل معاه كده ولا هو عمل بنفسه كده؟
نادر: قصدك إيه؟
حازم: قصدي اللي الناس كلها بتتكلم فيه، يكون انتحر؟
نادر: إيه؟
عمر: نعم؟!
حازم: هنكدب على مين؟ انت أكتر حد عارف قد إيه كان مش طايق الدنيا وعنده مشاكل في بيته ومع خطيبته وشغله.
نادر: أنا مش قادر أصدق، انت صاحبه؟! الله يرحمك يا عمر الله يرحمك.
عمر: آه يا ندل يا .....
يمشي نادر مبتعدا عن حازم وهو يتمتم باستغفار و«حسبنة».
عمر: استنى يا نادر همشي معاك.
وتمر الأيام وعمر يتجول هنا وهناك بين معارفه وأقاربه وأصدقائه، يجد ياسمين غير قادرة على استكمال الحياة، يحزن لدمعتها ويفرح لحبها الشديد له، ويغضب من جمل المواساة التي تحمل أملا بمستقبل جديد مع شخص آخر.
ولطالما كان يعترض ويغضب ويرق قلبه ويشتاق ويحن ويغازل.. إلى أن أتى ذلك اليوم، رافق ياسمين إلى المدرسة الإعدادية، حيث تعمل هناك مدرسة لغة عربية، وبعد مشاجرات كثيرة مع ركاب المترو من الشبان وسائق الباص المؤدي إلى المحطة التي تليها، لم يجد ياسمين تدخل المدرسة، بل وجد حازم ينتظرها.
حازم: ازيك يا ياسمين.. طمنيني عليكي.
عمر: انت عايز منها إيه انت؟
ياسمين: الحمد لله يا حازم أهو عايشين.

حازم: لا أنا مش عايز أسمع منك الكلام ده تاني.. مش كفاية؟
عمر: كفاية؟! ماشي ماشي يا عم.. كفاية.. فعلا كفاية.
ياسمين: أنا مصدومة بجد.. مش قادرة أتصور إنه عمل كده وليه، ولا ما عملش.. والله ما عارفة.
حازم: اهدي يا ياسمين.
عمر: انت اسكت، اهدي يا ياسمين.
ياسمين: مش عارفة والله، كل ما أهدا من ناحية أفكر في ناحية تانية أحس إن ده مش هو الشخص اللي حبيته وارتبطت بيه سنين.
عمر (بحزن عميق): إيه الكلام اللي بتقوليه ده يا حبيبتي؟
حازم: ياسمين، يمكن ربنا له حكمة من اللي جرى ده كله، يمكن يكون خير ليكي.
عمر: يا بن الـ...
ياسمين: عارفة والله إني زودتها وما حدش مضطر يتحملني.. كتر خيرك يعني..
عمر: هو إيه اللي كتر خيره؟
حازم: عيب الكلام ده يا ياسمين، انتي ما تعرفيش غلاوتك عندي قد إيه.
عمر: اخرس اخرس اخراااااااااس.. انت ازاي بتكلمها كده؟
حازم: ياسمين، أنا فعلا بحبك وعايز أكون أنا اللي هيعوضك عن كل اللي فاتك واللي ضايقك في كل حياتك.
ياسمين: حازم...
عمر (يفقد أعصابه ويصرخ): انت اتجننت يا حازم؟ وانتي بتقوليله حازم ولسه هتدلعي يا خاينة؟ وانت يا ندل أنا كنت مغمض عينيا عنكم ازاي؟
حازم: ياسمين، أنا متأكد إن أنا اللي هيقدر ينسيكي كل حاجة..
عمر: كفاية كفااااااااايااااا.. أنا مش قادر أسمعك أكتر من كده.
يركض عمر.. يركض ويركض.. يتجه إلى بيته ويصعد بسرعة شديدة إلى

السطوح، ويغلق الباب، هذه المرة إلى غير عودة.. لكن من دون عزاء أو نحيب.. فلا أحد هذه المرة سيعزّي بالميّت!

القصة الثالثة عشرة

زوجة الأستاذ فلان

وكأنه الحلم..
وكيف للحلم أصلا أن يبلغ حلاوة واقع صار فيه اسمي مسبوقا بـ«زوجة» الأستاذ فلان؟
كنت أنت الأستاذ فلان..
أين كنت يا رجل؟
آه، أتعلم كم ضاع من العمر في انتظارك؟
دعني أحدثك عن لقائنا الأول، لا تقاطعني، أعلم أنك تذكر تفاصيله، بل أدق أدق تفاصيله، لكن، دعنا نتذكر..
كنت أنظر إلى اللاشيء، عادتي إذا ما تأخر القطار، وعادته هو أن يتأخر أصلا، وقتها التقت عيوننا، يا الله، لم أدرِ وقتها إن كانت الثواني قد مرت وكأنها السنوات، أم أنها قد توقفت، لم أدرِ إلا وأنا أدير رأسي عنوة كي لا أطيل النظر إليك، فليس ذلك من شيم الفتاة المحترمة، هكذا أخبرونا حينما كنا صغارا، على سبيل كوننا مجتمعا شرقيا، أوهمونا أن ثمة علاقة عكسية بين الحب والتربية، ليتهم عرفوك..
لعل جيلنا يا عزيزي هو أكثر الأجيال التي قهرها الحب، قتلهم عشقا في الوقت الذي قتله آخرون بداخلهم كبتا وحيرة، كان الحب في مراهقتنا عيبا، بل إن مراهقتنا ذاتها كانت عوارا وعيبا لا بد من إخفائه والتستر عليه، فنشأت مشاعرنا مهزوزة معاقة، تولد فتنتحر، ذلك إن وجدت مساحة من الوقت، لم تدفن فيها حية..
أقسمت يوما على أن أكسر ذلك القيد، لكن مخاوفي كسرتني قبل أن يحدث ذلك، فارتضيت حالي، بل وأوهمت نفسي أنني الأفضل حالا، لكن لحظة، ألم يحن الوقت الذي يخرج قلبي من شرنقته فراشة؟
إذًا فليكن، ولتذهب حالة التجاهل إلى الجحيم، بل لأذهب أنا نفسي إلى الجحيم في سبيل هذه اللحظة، اللحظة التي تضاءلت حلاوتها أمام روعة عينيك اللتين ما رأيت بحياتي أكثر حنانا منهما، وُلد هنا بداخلي التعبير الذي

تحبه أنت: عيون شرقية..
سل فتاة مثلي عن عيون الرجال، أعرفهم على الرغم من صغر سني وقلة خبرتي، أعرف نظرات تائهة وأخرى متفحصة، وعيونا لاهية، وعيونا خائنة، سلني عن عيون مميزة لا يملكها سواك، أتت من عصور كان الرجال فيها رجالا، وكان الحب حبا حقيقا، عينان تحملان في نظرة واحدة أشجانا وأفراحا وآمالا، وحبا يبدو أنه قد وجد في عيني ضالته..
أم أنني كنت أنا الضالة؟
ركّب لي زوجا من الأجنحة البلاستيكية وأقنِعني بالقفز من فوق برج القاهرة لأفوز بجائزة قدرها خمسون قرشا، ودعني أنفذ ذلك دون أن يتحرج ضميرك، وصدِّقني سيكون ذلك أقل إيلاما من اللحظة التي غادرت فيها القطار إلى حيث لا أعلم، لم تودعني عيناك، لم أر فيهما وعدا أو أسفا على الرحيل، فقط نزلت..
يضحي البعض بالكرامة في سبيل الحب، وآخرون يزهدون الحب ليحفظوا كرامتهم، فما قولك في من سلبته أنت الاثنين في لحظة؟
نعم، أتتصور أنت صورتي وأنا عندك مجرد تسلية، ربما أنت لا تهوى القراءة، ربما أضعت سماعات هاتفك فلم تجد سلوى إلا في عيني فتاة مراهقة لم تجد من يُثنيها عن التحديق في وجوه الشباب، هكذا تقول الأسطورة.. ثم إنك قد كسرت أسطورتي الخاصة حين حطَّمت حلمي بقصة حب تخرق المألوف وتخرج لسانها لقدري تحديا كما الأطفال..
إلى هذه الدرجة نصبح حمقى حينما نحب..
نخلق أحزانا من الهواء، وتطير قلوبنا فرحة بأبسط الأشياء..
تلك حقيقة أدركتها في اليوم التالي..
من تحت نظارة شمس ارتديتها حجبا لأثر الحزن في عيني رأيتك، وبكبرياء مبارزة انحنت توًّا لتمسك بسيفها أقنعت نفسي أن نظراتك الحائرة ما هي إلا محاولات يائسة للبحث عني، إذًا سأعطيك فرصتك الأولى، في واقع الأمر

كنت أعطي قلبي فرصة أخرى للفرح، كان يمكن أن يصبح ذلك اليوم محض ذكرى حلوة في مفكرتي، لولا أن مفاجأتي بوجودك بمواعيدي قد أصبحت أمرا روتينيا، أصبحت كظلي، ترافقني من بيتي إلى حيث أذهب، ومن حيث كنت إلى البيت، إنما آن الأوان لتعترف، كيف فعلت ذلك دون أن تخاطبني ولو بكلمة؟!

حقيقة علمية رقم ٢:

يصاب العشاق بالطمع المفرط..

أوَلَيست حقيقة اليوم هي أمل أمس؟ لكنها ستصير غدا ماضيا لا يكفيني، يوم رأيتك لم أكن أتمنى أكثر من أن تبقى لمزيد من الوقت، وها أنا اليوم أرى في مرافقتك الصامتة لي - التي سبقت أن أخذتني إلى السماء السابعة - شيئا ناقصا، لم يكتمل إلا في ذلك اليوم الذي هاتفت فيه أبي طالبا لقاءه.. كيف؟ متى؟ لِمَ؟ لم أشغل نفسي بالبحث وراء أدوات استفهام سخيفة، ابتكروها ليفسدوا فرحتنا بأشياء يكمن جمالها أصلا في غموض سبب وكيفية حدوثها، وليس في الحقيقة أهم من كونها حدثت..

وقد حدثت بالفعل..

دعني أحدثك عن أجمل أيام حياتي..

كنت أنظر إلى خاتمك بيدي اليمنى، فأتخيل شمسا تخرج منه فتحيل ليلي نهارا، وتارة أخرى أشعر أن أوركسترا كاملة قد خرجت منها فعزفت على أوتار قلبي لحنا تحبه أنت، كان خاتما سحريا، أعطاني بطاقة عبور للجنة، غير أن عينيك قد زادتا جمالا، عرفت فيهما إصرارا عند كل مشكلة، عرفت فيهما حبا، زادني يقينا فوق يقيني، بأن ذلك اليوم سيأتي..

اليوم ٢١ - ١٢ - ٢٠١٢.

انتقل اليوم إكسير الحياة إلى يدي اليسرى، أصبحت حيث توقعت أن تكون منذ رأيتك، اليوم أنا زوجك، أنا حاملة اسمك وأم أبنائك القادمين، اليوم أسير دون أن تلامس قدماي الأرض، ألمس السماء بقلبي الذي صرت أنت

سيده، نقلتني إلى واقع أبهى من الخيال، إلا أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي عنه، أتخيل يوما تجمعنا فيه طاولة العشاء على ضوء الشموع، ويوما تفاجئني فيه بغداء أعددته أنت لي، فتشغلني سعادتي عن ملح ناقص أو مقادير مختلة، أو صباح مختلف توقظني فيه على صوت فيروز تشدو:

شايف البحر شو كبير، كبر البحر بحبك..

شايف السما شو بعيدة، بعد السما بحبك..

كبر البحر وبعد السما..

بحبك يا حبيبي..

يا...

توقف كل شيء حين توقفت الأغنية، من أوقفها؟ اتفقنا أنه لا مجال لعلامات الاستفهام، أغمضت عينيها، ثم أعادت قراءة ما كتبته في مفكرتها، ابتسمت ابتسامة بلا معنى وهي تتأمل ما أملاه عليها خيالها، يا لسذاجتها! قطعت الورقة وطوتها، ثم ألقتها من شرفة الطابق الثاني عشر حيث كانت تجلس، فلربما التقطها أحد فصادفت هوى في نفسه، وربما التقطها الأستاذ «فلان» بنفسه، فيتذكر «فتاة القطار» التي بادلته نظرات صنعت منها حلما لحياة كاملة، ذلك إن لم يكن هو الآخر مجرد خيال أوهمت به قلبها، المشتاق لأن يحب.